جمعة الحلفي

تحولات شارع مريدي

قصص ونصوص

ألف ياء
Alf Yaa

تحولات شارع مريدي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المؤلف: جمعة الحلفي

الكتاب: تحولات شارع مريدي (قصص قصيرة ونصوص مفتوحة)

صدرت النسخة الرقمية: كانون الثاني/يناير 2025

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياء AlfYaa»**
- جميع حقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جمعة الحلفي

تحولات شارع مريدي

قصص قصيرة

ونصوص مفتوحة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مقدمة:

سردية تشكيل المكان بصرياً

جمال كريم

اذا كان ثمة ما يثير انتباه وفضول المتلقي في نصوص الكاتب والشاعر جمعة الحلفي، السردية فهو أنها تقدم سيرة تفصيلية للمكان والأحداث والشخصيات، نصوص تحيل إلى مرحلة سياسية واجتماعية وثقافية اتسمت بطابعها الاستثنائي الخاص، هذه المرحلة بدأت على وجه التحديد منذ تغيير النظام الملكي في 14 تموز من عام 1958 بقيادة الزعيم الوطني عبد الكريم قاسم الذي شكل علامة وطنية فارقة برغم الأحداث السياسية العاصفة التي رافقت حكمه حتى مقتله في التاسع من شباط 1963 بعد أن انقلب عليه البعثيون في يومهم الأسود المشؤوم.

أقول من حركة قاسم وحتى انهيار نظام البعث الشمولي الاستبدادي، عاش العراق، وبخاصة خلال ستينيات القرن الماضي، صراعات سياسية عنيفة أسهمت الى حد كبير في تمزيق النسيج الاجتماعي العراقي المتماسك والمتناغم المنسجم، وهذا ما القى بظلاله على شتى ميادين الحياة، لكن ذروة بداية الخراب الحقيقي بدأت بقوة أكثر مع ثاني انقلاب بعثوي في العام 1968 ومن حينها دخلت البلاد في أسوأ مراحلها ظلمة ودماراً وقهراً .

الحلفي في "نصوصه القصصية والمفتوحة" لم يكن بعيداً عن تلك الظروف فقدم وجه الحياة بشتى صوره، وتقلباته وتحولاته، وكل ذلك

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتتبعه من دون أن يغفل مكوناً سردياً على حساب آخر، بمعنى أنه أمسك بخيطه السردي الواصل بين كل متون نصوصه، وهي نصوص تتنوع بين أكثر من شكل أدبي وهذا ما يجعل "تجنيسها" كلياً ضمن قالب فني واحد غير ممكن، ففي نص "سيرة جلوب" مثلاً، ثمة سارد ينسج وحداته السردية لأكثر من مشهد إنساني للمكان وللحظاته الزمنية الموحية والدالة، المكان بكل أبعاده الجغرافية باعتباره محتوى وحيزاً للشخصيات والأفعال والأحداث، ونستطيع القول أن المكان، هنا، الذي تحول بدلالته الأليفة أو العنفية الرهيبة الى نص لغوي، سردي/ شعري، ومقالي أيضا، يعيد أشكاله ومعانيه ودلالاته.

إن هذه النصوص السردية التي يصعب للوهلة الأولى تجنيسها، موجهة، كما أرى، إلى متلق على الأغلب لم يكن قد قرأها، ذلك لأن معظمها أنتجه الحلفي خلف حدود الوطن في منفاه القسري، وبهذا يكون المكان وذواته الفاعلة والمؤثرة في الأحداث وسيرورتها مكاناً متخيلاً ، بعد ان كان مكاناً واقعاً ومعاشاً، بمعنى آخر يمكننا القول أن هناك زماناً ماضياً لمكان متحول ضمن سياقات متعددة، وظروف وأحداث وصراعات مزلزلة، فالمكان بفضاءاته وشخصياته وأحداثه، ليس هو كما كان قبل نحو أربعة عقود، فالأمن العامة في عهد النظام الشمولي الدموي الذي أحكم وحشيته وبربريته على العراق لنحو أربعين عاماً، غدا مكاناً ذا محمول نقيض لمفهوم الأمن وعموميته، ثم ليستحيل إلى حيز للبطش والتعذيب والقتل، وهو هنا في ابشع وأفظع أشكاله ودلالاته رعباً وخوفاً، فضلاً عن أجهزته الأخرى، وعلاقات الشخصيات وأفعالها في المكان ذاته، أقول كل تلك المنظومات والشبكات الإنسانية التي مشت عليها السنون والأحداث والمتغيرات لم تعد موجودة واقعاً الآن، لكن الحلفي استطاع أن يعيد تشكيلها بوحدات سردية تشي بفيض شاعري إبداعي لتكون سيرة حقيقية للمكان والشخوص والأحداث.

إن حكاية "تحولات شارع مريدي" ذاكرة سردية مفتوحة على أحداث واقعية عاشتها الشخصيات في مرحلة قاسية ومريرة عاشها العراق في ظل نظام قمعي أسس لثقافة الخوف والعنف والكراهية والنكوص، الحلفي خزّن تلك الأحداث والأمكنة وزمنهما في ذاكرة أحاسيسه وعواطفه الإنسانية، ليبوح بها بعد سنوات طوال ظلت تعاني الخوف والرعب من الكشف عنها، فلم يعد هناك أي مسوغ للتردد أو ما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يدعو إلى إخفاء كل تلك الحياة التي عانت من الكبت من سلطات الطواغيت والجبابرة الذين تسلطوا على رقاب الشعب ليقطعوا صلته بحياته وحريته وآماله وأحلامه وتطلعاته، بعد زلزال ربيع 2013 الذي من بين ما أينعت على مجريات التغيير، حرية التعبير وغياب سلطة وقمع الرقابة.

تحيلنا القراءة الأولى لـ"حكاية شارع مريدي" من خلال نصوصها "السرد شعرية" منها أو السردية الخاصة إلى تساؤل فني مشروع: إلى أي شكل أدبي تنتمي نصوص الحكاية؟ في الحقيقة، سيجد المتلقي نفسه أمام أكثر من جنس أدبي، فهناك النص السردي القصصي، وهناك النص النثري الشعري، مثلما هناك المقال الفني المنبني على بعض عناصر السرد القصصي، من هنا، بإمكاننا القول أن هناك تنوعاً إجناسياً يفارق هذه النصوص، فيما تتوحد وتنصهر في بؤرة المعاناة الإنسانية، وبقدر ما سيشعر المتلقي فهم النص موضوعياً وتذوقه جمالياً، بقدر يدرك أن الكاتب وظف كل إمكاناته وأدواته وتقنياته الفنية لكي يقول كل ما يمكن قوله، اعتماداً على ذاكرته الحية، وقدراته الإبداعية في فن الكتابة.

واذا سلمنا أن الإنسان كينونة ذاتية وجودية بامتياز، فان هذا الوجود ليس بمنعزل عن محيطه الموضوعي المعقد والمتشابك، لكن الأبرز من بين كل ذلك أن الإنسان وسيرورة حياته محكومان بعنصري المكان والزمان، وهذان العنصران يلازمانه منذ صرخة ولادته الأولى وحتى صمت قلبه الأبدي، من هنا أرى أن الحلفي كشاهد وراوٍ وسارد وظف لغته السردية لرسم صورة بصرية متخيلة للمكان الأول (بغداد) وللأحداث وشخصياته المحورية في معظم النصوص خلال زمن اتسم بالقهر والاستبداد والبطش، وهذا ما دعاه إلى إعادة إنتاج سردياته في مكان وزمان مختلفين، وهذه الرؤية تنطبق على نص "موعد مع رئيس"، فالمكان هو كابول، والزمن يعود إلى ما بعد خروج قوات الاتحاد السوفييتي السابق حيث الفوضى والصراعات على السلطة السياسية وبروز نفوذ حركة طالبان، فيما يكون محمول النص المقابلة الصحفية التي يجريها الحلفي مع الرئيس محمد نجيب الله في وسط تلك الأجواء المرعبة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خلاصة لما تقدم أقول أن الحلفي عاش أمكنة وأدرك أشياءها وأحداثها وشخصياتها بحواسه ومشاعره وعواطفه، مثلما أدرك تحولات أزمنتها الاستثنائية القاهرة .

لا أريد في هذه التوطئة المختزلة أن أتعرض إلى محمولات النصوص وشخوصها وصراعاتها واطار حياتها، كي لا أفوت على المتلقي الحاذق متعة القراءة والاكتشاف والتحليل، خاصة حين أجد أن الحلفي نفسه يفترض أن كل نص إبداعي يكتب هو تجربة حياة وشهادة عليها، بما لا يجعل النص، أي نص، مهما تقادم عليه الزمن، يفقد قيمته المعرفية، شارطاً تمتعه بحرارة التجربة وديمومة الحياة.

المتابع لجمعة الحلفي لا تخفى عليه حقيقة انه كتب أغلب نتاجه خلف حدود الوطن في غربة منافيه القسرية، إذ عاش في مهاجره ما يقرب من ربع قرن، وهذا ما يدعوه إلى الافتراض، مرة أخرى، أن هذا النتاج لم يقرأ داخل العراق، إلا بحدود نادرة، لهذا وجد أن نشره في كتاب، قد يكون نافعاً يوفر للقارئ فرصة للمتعة والاطلاع على تجربة حياة عشتها.

ويعترف الحلفي بتواضع الخبير والواثق من أدواته التعبيرية أنه يتعامل مع الكتابة الإبداعية كهواية أكثر منها اختصاص أو وظيفة، بعد تجربة أربعين عاماً أمضاها الكاتب في شتى ميادين الكتابة، ابتداءً بالشعر الشعبي والفصيح مروراً بالرواية والقصة القصيرة، وانتهاءً بالنصوص المفتوحة، هذا فضلا عن خوضه غمار العمل في ميدان الصحافة مهنته الأولى والأخيرة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

علبة الأحلام

انتظر على الرصيف بملل وحرج، طوال نحو عشرين دقيقة، حتى نقل العمال آخر كيس من تلك الأكياس الكبيرة المحشوة بالرسائل، إلى داخل مؤسسة البريد. همَّ بصعود الدرجات القليلة المتآكلة المؤدية إلى باب المؤسسة الداخلي، ثم توقف فجأة وكأنه تذكر شيئاً (من شبه المستحيل أن يتمكن العمال، خلال هذه الدقائق، التي مضت للتو، من تفريغ كل هذه الأكياس، ومن تصنيف الرسائل ومن ثم إيداعها العلب البريدية!) كان يفكر بملل زائد وبانزعاج (ثم مَن يضمن أن تلك الرسالة الموعودة، التي انتظرها منذ أشهر، وربما سنوات، موجودة مع هذه الشحنة من أكياس الرسائل؟)

تساءل مع نفسه جزعاً ثم عاد أدراجه إلى الرصيف ومنه إلى المقهى الصغير المعتم الواقع تحت جسر فيكتوريا (ماذا يحصل لو أني عدت بعد ساعة، وحتى ساعتين، فإذا كانت رسالتي في واحدة من تلك الأكياس، التي نقلها العمال، فستكون، بكل تأكيد، في طريقها إلى علبتي البريدية الصغيرة) شعرَ براحة لهذا الاستنتاج لكنه لم يتخلص تماماً من ذلك القلق الذي تغذيه هواجس غريبة (ماذا لو كانت الرسالة، التي انتظر بشغف منذ كثير في ذلك الكيس الأزرق الضخم، الذي كان عامل البريد يسحله على الدرجات مثل خروف يُجرْجَر للذبح؟! ولِمَ لا يكون ذلك الكيس قد تمزق على الدرجات وسقطت منه تلك الرسالة؟ ماذا لو أن..

ـ سادة أُستاذ؟

قطع نادل المقهى، الطويل بإفراط (كما يسميه عادة) مونولوجه، فحملق بوجهه برهة ثم أجاب باستسلام:

ـ نعم سادة مع كأس ماء.

نزع نظارته الطبية وبخ على زجاجها نثاراً من فمه ومسحها بقطعة ورق ناعم. أخرج صحيفة صغيرة من حقيبته الجلدية السوداء، (وضع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النادل فنجان القهوة وكأس الماء على الطاولة) بدأ يتصفح جريدته بلا مبالاة فوقع نظره فجأة على خبر ملفت، قرأ باندهاش لهذه المصادفة: «حتى الرسائل محرمة على المنفيين» (كان الخبر الصحفي يتحدث عن ضياع، أو عدم وصول الرسائل التي يبعث بها المنفيون إلى أهاليهم) عاد إليه القلق لكنه تذكر أن الأمر لا يعنيه كان باب المقهى يطل، من موقع جانبي، على بناية البريد الكبيرة الغبراء.... رشف من فنجان القهوة والتفت، من دون قصد، ناحية الباب كان هناك شابان وفتاة يقفون عند مدخل المقهى فيمنعون عنه رؤية بناية البريد تضايق أول الأمر لكن الفتاة سرقت انتباهه لم يكن يرى وجهها بيد أن قوامها الرشيق واكتناز خلفيتها المضمومة في بنطال الجينز الأبيض، أغرياه فظل يمعن النظر، خلسة، بتقاطيع ذلك الجسد، مأخوذاً بشهوة دفينة طمرها العوز اليومي وذلك الانتظار الشغوف، لتلك الرسالة الموعودة.

ظل يُقلّب صفحات جريدته الصغيرة باصطناع وفوضى، لكي يواصل اختلاس النظر إلى خلفية الفتاة، ازداد تأججاً وهو يراها تميل صوب أحد الشابين بطريقة أبرزت، أكثر فأكثر، مفاتنها البارزة. كانت تضحك فيهتز جسدها اهتزازات تجعل من خلفيتها المكتنزة تتكور وترتفع ثم تهبط باهتزاز آخر ناعماً لكنه صاخب أيضاً. انتفخت خصيتاه وشعر بارتجاف يجتاح جسده كله. حاول أن يلتقط كأس الماء، الذي اندلق بحركة غير إرادية من يده المتوترة، فأوقع الكأس وفنجان القهوة معاً، فالتفت نحوه رواد المقهى والشابان وفتاتهما أيضاً، شعر بالخجل لكنه تخلص من توتره الجنسي وعاد يقلّب، بلا مبالاة، جريدته الصغيرة.

تطلع إلى الساعة ونهض مسرعاً. سار باتجاه البريد، صعد الدرجات القليلة، التي تؤدي به إلى الباب الدوار، ثم دلف إلى الرواق المعتم المليء بصفوف طوال من العلب البريدية. توقف أمام علبته ودقق في رقمها جيداً قبل أن يلج فيها مفتاحه الصغير. صمت برهة كأنه يصلي ثم فتح العلبة. لم يكن هناك شيء سوى الغبار والعتمة. مد يده ليتأكد فتركت أصابعه خطوطاً على الغبار، ذكرته بتلك الخطوط، التي تركها الكيس الأزرق الضخم على الدرجات، عندما كان عامل البريد يسحله كما الخروف.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم ينشغل، من قبل، بانتظار رسالة، كما هو مشغول هذه المرة، وبهذه الرسالة بالذات. ربما كان عوزه المادي، الذي بلغ حدوداً مخزية (كما كان يردد) واحداً من أسباب هذا الانشغال المرير. فهو منذ أشهر يتحايل على صاحب البقالية المجاورة لغرفته، لكي يبقي صفحة ديونه مفتوحة، أو لكي يتهرب من تسديد ما بذمته، أطول فترة ممكنة.

ولأن أسباب عدم تسديده دين البقالية، ضعيفة، أو غير مبررة في الأقل، بسبب مظهره الأنيق ولغته المهذبة والمثقفة في التعامل مع الآخرين، فقد كان يتجنب، طوال الأسابيع الماضية، المرور في الشارع الذي تقع فيه «بقالية الأمل» فيضطر لقطع مسافة التفافية مرهقة وموحلة، من أجل بلوغ غرفته في الأزبكية. تصادف مرة مع صاحب البقالية وجهاً لوجه، وكان مشهداً كئيباً، فقد حاول الإفلات من دون جدوى، إذ لم يجد أمامه غير حل واحد هو عبور الشارع، بسرعة فائقة، إلى الجهة الأخرى. لكن سوء الحظ كان بانتظاره هناك أيضاً، فبعد هذه المخاطرة، وجد "أبو أمل" صاحب البقالية نفسه، يقف قبالته بالضبط، فهو الآخر كان قد قطع الشارع في اللحظة ذاتها، لأن بيته يقع في الجهة الثانية. انتهت المقابلة بسلام إذ لم يفتح "أبو أمل" أي حديث عن الدين واكتفى بسؤاله عن أحواله وعما إذا كانت الرسالة التي ينتظرها قد وصلته، بعد كل هذا الانتظار.

ستصل الرسالة لا محالة (قال لنفسه) ورمى بحقيبته الصغيرة على الطاولة بتكاسل وتعب، كمن يرمي بسيفه بعد معركة منهكة. ذهب إلى الفراش من دون أن يفعل شيئاً، مع أن بطنه كانت خاوية (كان قد تساءل في المقهى: كيف يمكن أن يحدث لديه مثل هذا الانتصاب وبطنه خاوية؟). أشعل سيجارته، التي يدخنها عادة قبل النوم، وهو يضع نصف جسده السفلي تحت الغطاء والنصف الآخر على حافة السرير العليا. تطلع في فضاء غرفته المعتم وكأنه يراه للمرة الأولى. كان الصبغ الزيتي قد تشقق من الرطوبة والقِدم فترك في السقف والجدران ما يشبه فوهات البراكين، يتطاير منها طحين رطب رمادي اللون، مع كل نسمة هواء تدخل من النافذة الوحيدة.

كانت صور النساء، نصف العاريات، قد فقدت بريقها من جراء تراكم ذلك الطحين الرمادي الرطب، فقام، مدفوعاً برغبة متأججة منذ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الظهيرة، لينفخ في الصور، وعاد ليتمدد على السرير وهو يحدق بها كأنه يكتشفها للتو.

فكّر ملياً بتلك العبارة، التي انزلقت من ذهنه مثل حكمة عبقرية (ستصل الرسالة لا محالة) فأحس بالاطمئنان لأنه توصل أخيراً إلى حلٍ لتلك المعضلة، التي أرقته طوال الأيام الماضية. فما دامت الرسالة ستصل، كما توصل بفضل حكمته السديدة، فسوف تحل كل المشكلات دفعة واحدة ولا داعي، إذن، للقلق.

كان يستدعي، في العادة، واحدة من صاحبات الصور، كلما عزم على تهييج نفسه، لكنه قرر الليلة (أو هكذا جرى الأمر) أن يسهر مع صاحبة الجينز الأبيض وتكويرتها المغرية. هدأ ضجيج السيارات في الشوارع المحيطة بغرفته، مع هدوء أعصابه المتوترة، فانزلق، رويداً رويداً، في حوض الماء الدافئ المليء برغوة الشامبو، حتى بلغ الماء رقبته. مرت لحظات غائمة، اختلطت فيها الألوان والأضواء والأصوات والأمكنة. حطت حَمامات، بلا حركة، على حافة حوض الماء الدافئ، فلمح قصاصات ملونة تسقط من أرجل الحمامات، فتتطاير مثل أوراق شجر في الخريف. حاول أن يلتقط واحدة من تلك القصاصات، فانزلقت في حوض الماء وترسبت في القاع. حاول التقاط واحدة أخرى، كانت أشبه بمظروف رسالة ملونة، مد يده، فاستحالت شيئاً صلباً ساخناً ولزجاً، استهوته مداعبة ذلك الشيء، فطارت الحمامات من حافة الحوض وحطت على حافة السرير، لكنه ظل يحاول الإمساك بتلك الرسالة ليفك مظروفها الملون.

مد يده مرة أخرى، فانزلقت يده في منفذ معتم، بسبب لزوجة أصابعه. سقطت قصاصته في الحوض فاستحال الماء الدافئ أحمر قانياً، ثم اندلق على أرضية الحمام وانساب إلى غرفة نومه. ظل يحاول، يدخل يده في الكوة فتعود لزجة خالية، فيما الماء يندلق أكثر فأكثر فيشكل نهراً صغيراً من رغوة الشامبو، يتسرب بهدوء، وهو لا يزال يكرر محاولته للإمساك بقصاصة الورق الخضراء. قطع نهر الرغوة باب غرفة النوم فامتلأت به، ثم صعدت السرير وغطت الشراشف وكادت تصل إلى صور النساء، شبه العاريات، المعلقة على الجدران. كانت فتاة الجينز الأبيض، بين تلك الصور. مد يده ليمسك بها فسمع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضحكات، كان مصدرها فتيات الصور. ترك القصاصة تسقط في الماء الدافئ وذهب يتفحص الفتاة صاحبة الجينز، ويحاول منع الرغوة من الوصول إليها، تلمّس صدرها وبطنها فانزلقت يده في فتحة الحوض، فتلمس شيئاً رخواً ساخناً. عاد يبحث عن القصاصة فلم يجد هناك شيئاً سوى الغبار والعتمة. سقطت يده من على السرير وكانت رطبة ولزجة، فانطبعت أصابعه على الطحين الرمادي المتساقط من السقف، تاركة خطوطاً تشبه تلك التي تركها الكيس الأزرق، الذي كان يسحله عامل البريد، مثل خروف يجرجر للذبح. في صباح اليوم التالي كان جبار العراقي (بطل هذه القصة) خاوياً مهدود الأعصاب، مبللاً بعرقه اللزج، يعاني من حمى شديدة، لا يقوى على تذكر أي شيء سوى تلك القصاصة، الغبراء اللون، التي تسلمها من موظف البريد. مد يده بصعوبة إلى طرف الطاولة والتقط القصاصة وقرأ ثانية: «نبلغكم أن اشتراككم في الصندوق البريدي رقم 2000، التي كانت مسجلة باسمكم، قد ألغي جراء عدم تسديدكم الاشتراك السنوي... شكراً»

رمى بالقصاصة وردد مع نفسه: شكراً!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

جيران

أبو علاء

كان أبو علاء، جيراننا لصق الدار، رئيس عرفاء شرطة، مأزوماً نفسياً وكئيباً أغلب الوقت. كل يوم خميس يذهب عصراً إلى إحدى حانات بغداد، يشرب ثم يعود إلى بيته سكراناً فيبدأ بتكسير كل ما هو مصنوع من الزجاج، بحيث تمتلئ أرضية البيت، كل ليلة خميس، بشظايا الزجاج المتناثر في جميع الزوايا. كنا نحن، جيران أبي علاء، نراه حين يخرج من بيته عصر الخميس، وقوراً مرتدياً بذلته الرمادية، ملمعاً شعره وسابلاً شاربيه الكثّين. وكنا نراه عائداً في المساء يترنح ويستند على الجدران حتى يصل إلى داره فيرفس باب بيته رفساً شديداً حتى تسارع زوجته لفتحه قبل أن يتحطم. أما نحن الجيران، شيباً وشباباً، أطفالا ونساء، فقد كنا نبقى صامتين بانتظار الزوبعة.

يبدأ المشهد هكذا: سعال متواصل تقطعه نتف من شتائم موجهة لا على التعيين... ثم أصوات أحذية وشحاطات وأشياء أخرى ترتطم بالجدران.. بعدها يتصاعد لغط كلام أشبه بالعتاب لكنه متشنج ومكبوت. وماهي إلا دقائق.. حتى ينبثق صراخ متوسل من أم علاء. الكلام نفسه يتكرر: لخاطر الله أبو علاء... لخاطر عيون أولادك... ما ظل عدنه شي ينكسر.. والله هاي الصحون اشتريتهن بالدين... عند هذه النقطة تبدأ استعداداتنا، نحن جيران أبي علاء، يذهب أبي، ثم نلحق به، أخوتي وأنا فنقف جميعاً بجوار الحائط الذي يفصل بيتنا عن بيت أبي علاء... استعداداً للقفز عند الضرورة. ومع أول دزينة من الصحون تبدأ تتكسر بعد ارتطامها ببلاط غرفة أبي علاء، تصرخ أم علاء بكل صوتها: يا ويلي دخيلك أبو عبد الواحد. وماهي إلا لحظات حتى يكون أبي، أبو عبد الواحد، قد أصبح في باحة دار أبي علاء. وكما يهبط المظليون من السماء، نهبط من سياج الحائط، الواحد تلو الآخر لنكون في الدار.. أبي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وأخي الكبير يمسكان بأبي علاء ويدخلان معه في عراك لكي يخلصا من بين براثنه بقية الصحون وكاسات الشاي، وأنا وأخي الآخر نذهب إلى غرفة الأولاد لكي نهدئ من اهتياجهم ورعبهم وصراخهم.

تستمر الجولة نحو نصف ساعة يهدأ أبو علاء شيئاً فشيئاً، وتهدأ معه الشتائم الموجهة إلى أم علاء وأجدادها وأعمامها وأخوالها، من دون سبب معلوم.. ثم يجلس على الأرض ويغطي وجهه بكفيه ويذهب في نشيج حار متواصل يخلع القلب. عندها نبدأ، نحن جيران أبي علاء، بالتسلل من بيته الواحد تلو الآخر وهذه المرة من باب الدار وليس عبر الحائط، شاعرين بالأسى والخجل.

هذه هي سهرتنا كل خميس لا يتغير فيها شيء سوى غياب البعض منا أحيانا، وهو الآخر لا يغير من المشهد شيئاً، فأبي، الذي لا يخرج من البيت إلا عند الضرورة، هو من يتكفل بالإمساك بأبي علاء عندما يبدأ بهيجانه والبقية يتولاها الآخرون.. ومع مرور الأيام صرنا نحرص جميعاً على أن لا نغيب مساء الخميس عن البيت، حتى أن أبي أنبني مرة لأنني غبت عن الدار في واحد من أيام الخميس قائلاً: "يعني ماكو يوم غير الخميس تروح تسهر بيه؟". وفيما بعد علمت أنني لست وحدي من كان غائباً في ذلك الخميس، بل أخوتي أيضاً، الأمر الذي جعل أبي يقوم بفك الاشتباك وحيداً.. وكانت الخسائر في ذلك المساء كبيرة جداً، إذ ليست الصحون والكاسات فقط ما تناثر على الأرض، بل الطناجر المليئة بالطعام والمروحة الحديدية التي (تفصّخت) بعد ارتطامها بالحائط. تلا ذلك، العبث بصناديق الملابس التي رميت من الشباك إلى الشارع، وتمزيق ثوب أم علاء.. وأخيراً شتم الجميع بما في ذلك أبي (أبو عبد الواحد).

بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك الخميس الحزين، الذي قيل لي، فيما بعد، إن أبا علاء، ركل فيه زوجته فأخرجها من المطبخ مثل كرة، ثم رماها بصحن كبير تكسر على رأسها وتناثرت شظاياه في كل الاتجاهات، التقيت بأبي علاء تحت جدارية فائق حسن، في حديقة الأمة وسط بغداد. كانت مصادفة غريبة أن التقي به وهو في قمة الصحو، وقوراً وكئيباً، ملمعاً شعره وسابلاً شاربيه ومرتديا بذلته الرمادية ذاتها. وقف حين اقتربت منه وقال في ما يشبه الاعتذار عن قاموس من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأخطـاء: أخــي جمعــة... تعــال أبــوس رأســك.. وإذا أردت أبــوس حذاءك... لأنني تسببت لكم بما يكفي من الإزعاج... قاطعته خجلاً: استغفر الله أبو علاء.. أنت مثل أخي الكبير وكل ما حصل لا يستأهل اعتذارك هذا. قبلني وقبلته وكان يكاد يبكي، أو إنه بكى فعلا، ثم تركته يعود ليجلس على المصطبة في حديقة الأمة وذهبت .

بعد أيام من ذلك اللقاء المؤثر، وكنت عائداً إلى البيت في وقت متأخر، وجدت أمي جالسة في باب الدار، على غير العادة، فتعجبت، قالت لي، قبل أن اسألها: أبوك أخذ أم علاء للمستشفى، وأبو علاء أخذوه الشرطة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشاعر...

من دون أسنان!

قبل أيام نسيت أسناني في البيت وخرجت على عجل.. (سيفتح القارئ فمه اندهاشاً: كيف يمكن أن ينسى المرء أسنانه؟) نعم. هذا الذي حصل معي وهو مزعج دون ريب، خاصة بالنسبة إلى شاعر، والأكثر إزعاجا هو أنني، عندما نسيت أسناني، كنت ذاهباً إلى أمسية شعرية لإلقاء قصيدة.

المهم، قبل أن أصل إلى مكان الأمسية (وهو يقع في شارع فخم من شوارع العاصمة) تنبهت للأمر مصادفة فراعني ذلك. قلت لسائق التاكسي، بنبرة يبدو أنها كانت خشنة بعض الشيء، أن يعيدني سريعاً إلى حيث انطلق بي، ففعل بوجوم.

في جوار البيت وجدت ابنتي لا تزال واقفةً، بعد أن كانت ودعتني قبل لحظات وهي منزعجة لأنها حاولت، بإلحاح، أن تذهب معي إلى الأمسية، فرفضت ذلك بذرائع شتى (بصراحة، هي طويلة وأكبر من عمرها، كما كانت تقول والدتي، رحمها الله، وهذا يسبب لي الإحراج، على الدوام، عندما ترافقني، خصوصاً في الأماسي الشعرية!).

قلت لابنتي، بنبرة تشبه تلك التي انزعج منها سائق التاكسي، أذهبي سريعا واجلبي لي أسناني من البيت، فضحكت بوجهي بطريقة لم أعهدها منها قبلاً (فهي تكن لي احتراما كبيراً، بل وتعتبرني أباً روحياً لمحاولاتها المتواضعة في كتابة الشعر والقصة).

عادت أبنتي بالأسنان بعد أن أخفتها داخل كومة من المناديل الورقية (وكانت هذه التفاته ذكية منها، فلو رأى أولاد الحارة الأسنان بيد أبنتي لكانت فضيحة) ذهبت أبحث عن تاكسي أخرى، وكانت الأمسية قد بدأت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بالطبع حسب التوقيت المحدد في بطاقة الدعوة، لكن من حسن الحظ كان هناك شاعران يشاركاني الأمسية، وهما من أصحاب المطولات الشعرية .

وأنا أقبع في التاكسي مغموماً، تذكرت يوم فقدت أسناني الحقيقية، وكان ذلك بمنزلة انهيار مروع لشعوري بالشباب والحيوية. كنت أتناول طعام الغداء عندما سقط شيء في صحن الطعام فأصدر رنيناً خافتاً. لم أصدق الأمر للوهلة الأولى، فمددت أصبعي في فمي لأتأكد وإذا به يلج فراغاً مخيفاً بين صف أسنان المقدمة. تذكرت، في الحال، أن لي ضرساً كبيراً آخر كان مرتخياً، مددت أصبعي فلم أجده هو الآخر، بحثت أمامي في كومة العظام والفضلات فإذا به مركون بإهمال يدعو للشفقة.

صدمت حينها واكتأبت كثيراً، وعندما سألتني زوجتي لماذا كففت عن الأكل، صمتُ برهةً ثم بكيت بصمت، لكن دمعة سقطت بصخب في صينية الطعام نبهت زوجتي للأمر، وبعد أن عرفت بالقصة واستني بشيء من المزاح البريء، لكن كآبتي بقيت مسيطرة عليّ، خاصة عندما ذهبت لأرى شكلي الجديد.

وقفت أمام المرآة وابتسمت بانزعاج. كانت ابتسامة باكية في الواقع فقد شعرت حينها وكأن دهراً قد مضى على شبابي، كان شكلي مروعاً، وفي الحال شغلتني فكرة مزعجة: كيف يمكن أن يكون الشاعر من دون أسنان؟. ذهبت إلى غرفة النوم، ارتديت ثيابي بسرعة ووضعت منديلاً على فمي وخرجت قاصداً طبيب الأسنان.

في قاعة الأمسية استقبلني عريف الحفل بترحاب كبير وأعلن للجمهور وصولي بعد تأخر. جلست في مقدمة الضيوف حزينا جراء تذكري لقصة سقوط أسناني، حتى أن كأس العرق الكبيرة، التي شربتها قبل أن أخرج من البيت، تبخرت من رأسي فعادت صحوتي القاتلة تحركُ فيَّ الخجل والتردد..

لم أصغ لحرف واحد مما كان يقرأه الشاعر الأول في الأمسية، فقد انشغلت مجدداً بالفكرة المزعجة إياها: كيف يمكن أن يكون الشاعر من دون أسنان؟ أدرت الفكرة في رأسي مراراً وتكراراً وحاولت تخفيف وطأتها على نفسي (خاصة عندما نبهني صديق جالس بجانبي إلى أن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشاعر الأول أنهى قصيدته ولم يبق غير الشاعر الثاني وبعده سيأتي دوري في القراءة).

تذكرت صديقاً، يعد من أفضل المغنين الشباب، كان هذا الصديق المغني يعاني من مشكلتي ذاتها، لكن الفارق أن له ضرساً اصطناعياً واحدا، فقط، وقد أخبرني ذات يوم بأن هذا الضرس سقط من فمه مرة وهو يغني في احتفال كبير ومهيب، ومن شدة فزعه وخوفه من أن يكتشف الجمهور ذلك، مد يده وقطع سلك الكهرباء المربوط بجهاز الميكرفون، وفي الحال بدأ صفير وصراخ الجمهور، وبينما انشغل عمال الإنارة بإصلاح السلك الكهربائي، مد صديقي المغني يده والتقط ضرسه من الأرض، وبحركة فنية بارعة، (كما وصفها!) أعاده إلى فمه من دون أن يشعر به أحد.

كنت ساهماً عندما نبهني الصديق الجالس إلى جانبي أن دوري قد جاء وأن لغط الجمهور بدأ يتعالى لأنني تأخرت في النهوض عندما أعلن عريف الحفل عن أسمي.

نهضت، بعد أن تلمست أسناني بحركة لا إرادية. وقفت أمام الميكرفون وفي ذهني الفكرة المزعجة إياها: كيف يمكن أن يكون الشاعر من دون أسنان؟ تصورت الأمر من زوايا مختلفة، قلت، ربما لن يكون الشاعر مقبولاً من قبل الجمهور إذا لم يكن على شيء من الوسامة، أو الأناقة في أقل تقدير، وهذا من حق الجمهور من دون ريب، فشكل الشاعر وأناقته وطريقة إلقائه لقصيدته، كلها مكملات لقوة وجمال القصيدة، حتى أن معاصري بدر شاكر السياب يقولون أنه كان يتجنب المشاركة في المهرجانات الشعرية لأنه لم يكن وسيماً مثل أدونيس أو أنسي الحاج، وأن محمد الفيتوري أيضاً يتردد هو الآخر في قبول دعوات المهرجانات للسبب ذاته. هذا من جانب، ومن جانب آخر تصورت أن الشاعر عندما يكون من دون أسنان قد لا يستطيع إلقاء قصيدته إطلاقاً لأنه سيظل يلثغ بكل الحروف تقريباً، إلى درجة، تصورت معها، أن القصيدة يمكن أن تسقط من فمه من دون صوت مثل طفو السيجارة، بل الأكثر مأساة أن يتصور الشاعر إياه أنه قد ألقى قصيدته فيتساءل مع نفسه لماذا لم يصفق له الجمهور، في حين يتساءل الجمهور أيضاً لماذا لم يقرأ الشاعر قصيدته؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وقفت أمام الميكرفون والفكرة المزعجة إياها لا تزال تشغل ذهني: كيف يمكن أن يكون الشاعر من دون أسنان؟ وبعد لحظات، ومن دون تردد، طرحت السؤال على الجمهور، وأنا جاد كل الجد في ذلك، قلت: أيها الجمهور الكريم المحترم.. ترى كيف يمكن أن يكون الشاعر من دون أسنان؟ فضحك الجمهور بصخب ثم تعالى التصفيق في القاعة حتى صمّ أذنيّ، وكما تأكدت فيما بعد من الصديق الذي كان يجلس بجانبي، أن الجمهور كان يتصور أن سؤالي هذا إنما كان عنواناً لقصيدة جديدة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

زنوبـة

أقمت، خلال الأربعين عاماً الماضية، علاقات مع نساء كثيرات، بعضها كان مجرد صداقات عابرة، وبعضها الآخر كان أبعد من ذلك. وعلى العموم أتيح لي أن أتبادل القُبل مع غالبية من أقمت معهن علاقة عاطفية.

يختلف طعم هذه القُبل من واحدة إلى أخرى، وفقا لطبيعة ونوع العلاقة، أو تبعاً لحساسية الواحدة منهن. وأحياناً تبعاً لطبيعة المكان، بيتا كان أم شارعاً مظلماً، أم حديقة، أم زاوية مظلمة تحت درج بناية. وإن شئنا الدقة يمكن القول أن لكل قُبلة طعمها الخاص. فهناك قبلة طائرة تشبه وخزة الدبوس، لذيذة لكنها سريعة الذوبان. وأخرى هادئة مليئة بالحنان والرقة، وهناك قُبلة ساخنة تغور في أعماق الحواس فتحدث لذة لا توصف. وكما يقول التاويون فإن للقُبلة، ثلاثة ينابيع، الأول يدعى زهرة اللوتس، حيث يتفجر سائله من فتحتين قائمتين تحت لسان المرأة، وهذا السائل يجري بغزارة عند المداعبة، وهو شفاف وذو فائدة عظيمة. والينبوع الثاني وسائله كالثلج الأبيض ينفجر من النهدين، لونه أبيض وطعمه حلو، ومن فوائده تنظيم الدورة الدموية لدى المرأة والرجل، كما أنه يبعث الراحة في الجسد والروح. أما الينبوع الثالث ويعرف باسم الفطر الأرجواني، أو مغارة النمر الأبيض، فسائله لزج ويدعى زهرة القمر، وهو لا ينفجر أو لا يجري إلا بعد أن تفتح القصور جناتها وتخفت الأصوات حتى تصبح همساً.

على أية حال ليس موضوعنا أية قبلة وإنما تلك القبلة، التي لم تتكرر طوال الأربعين سنة التالية من حياتي. وقبل أن نتحدث عن القبلة لابد من الحديث عن صاحبتها. ففي الصيف ننام على سطح بيتنا، كما هو حال غالبية العراقيين، هرباً من الحر اللاهب، وفي صباح من الصباحات، وكنت أصحو متأخراً دائماً، فلا أجد سواي على السطح، لاحظت أن هنالك فتاة على سطح الدار المقابلة لنا، تتأخر، هي الأخرى،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عن النهوض من فراشها. دفعني الفضول وأشياء أخرى، إلى النظر إليها من جدار سطحنا فوجدتها، هي الأخرى، تسترق النظر نحوي بدوافعها الخاصة.

توالت الأيام والصباحات المتأخرة، فتحولت النظرات المتبادلة إلى تحايا صباحية. ثم إلى ابتسامات ووشوشات وإشارات بالأيدي. وتطور الأمر بعد ذلك، فكنت، حين اذهب إلى عملي أو أعود منه، تنتظرني تلك الفتاة وراء الباب، الذي تتركه مواربا، فألقي عليها التحية همساً وتردها بتحريكة من شفتيها.. ولمناسبة الحديث عن الشفاه لابد من الإشارة إلى فرادة شفاه تلك الفتاة، فهي أشبه بحبتي كرز تميلان إلى حمرة شفافة.. منذ اليوم الأول الذي مررت به بجوار بابها الموارب سحرتني تلك الشفاه إلى درجة أنني كنت أتلمظ بعد أن أتجاوز باب بيتهم. في مرة من المرات، وكنت قادماً من عملي ظهراً، رميت لها من شق الباب برسالة صغيرة مطوية طياً فالتقطتها فوراً وأغلقت الباب.

كتبت لها في الرسالة، أو القصاصة الصغيرة، كلمات حب غاية في الرقة، وطلبت منها أن نلتقي في مساء ذلك اليوم.. كان الطلب صعب التحقيق بطبيعة الحال، بسبب الأجواء المحافظة السائدة من جهة وانعدام وجود أماكن لمثل هذه اللقاءات في مدينة الثورة من جهة ثانية. ولهذا فقد هددتها بأنني سأزعل، ولن أنام على السطح، ولن أمر من أمام باب بيتهم، إن لم تلب طلبي باللقاء.

انتظرت المساء بفارغ الصبر والحيرة، فقد كنت شبه متأكد من أنها لن تأتي، لكن أملاً خفياً مدعوماً بتهديداتي، كان يداعب مشاعري بأنها ستفعل ذلك. كنا نسكن عند أطراف المدينة وكانت البيوت والشوارع العامة الضاجة بالحركة وبالمحال والدكاكين، تقع كلها على يمين بيوتنا، أما على يسارها فكانت هناك فسحة واسعة، خالية من البناء، تحاذي الشارع العريض الفارغ أيضا من أية حركة.

ومما زاد في خلو هذا الشارع، نصف المضاء وشبه المظلم، أن تلك الأيام كانت أيام عاشوراء. ولأن مجالس العزاء الحسينية تقام في الجهة الأخرى من المدينة، فقد كان الناس يذهبون إلى تلك الجهة، فلا تبقى في جهة شارعنا الموحش، سوى الكلاب السائبة والقطط الجائعة. في هذا الشارع كان موعدي المؤمل.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد أن هبط المساء، كنت قد ارتديت ملابسي وتعطرت وخرجت لأقف بجوار بيتنا منتظراً. وماهي إلا دقائق حتى تحققت المعجزة العاطفية، فقد جاءت متلفعة بعباءتها السوداء لا يظهر منها سوى عيناها وأنفها. سرت متقدما عليها خطوات حتى بتنا بعيدين بعض الشيء عن بيوتنا، فتقاربنا وكاد جسدانا أن يتلامسان لولا حذرها الزائد... تكلمنا كلاماً لا أتذكر منه غير عبارات المجاملة المصحوبة بالخوف والرعشة... خوفها هي ورعشتي أنا، فقد كان في روحي وعقلي هدف واحد من ذلك اللقاء هو تقبيل ذينك الكرزتين اللامعتين بالحمرة الشفافة. اقتربت منها أكثر حتى شعرت بأنفاسها تلفع وجهي. كانت خائفة وكنت مندفعاً فأمسكت بخصرها بكلتا يدي وسحبتها فانضغط نهداها الصغيرين على صدري. كانت تصدر لهاثاً أشبه بلهاث النائم. حاولت أن تدفعني ثم تمسكت بي بقوة فاندفعتُ مقبلاً شعرها وجبينها ورقبتها، فأحسست بأن جسدها كله صار ثقيلاً بيدي، وأخذت ترتجف ويزداد لهاثها... ضغطت على خصرها مرة أخيرة وقبلتها من شفتيها قبلة عميقة، شعرت معها، وكأنني غبت عن الوعي. وما أن صحوت حتى وجدتها وقد انسلت من بين يدي وسقطت على الأرض... فوجئت وخفت، حاولت أن أساعدها على النهوض فوجدتها في حالة إغماء حقيقية... ازدادت مخاوفي فرحت افرك لها يديها وأتوسّلها أن تنهض... دام الأمر بضع دقائق حتى عادت إلى الوعي فنهضت وهي في شبه غيبوبة.

أوصلتها إلى مكان قريب من بيتها وتابعتها حتى دخلت، ومنذ ذلك المساء قررت أن لا أعود لرؤية جارتي زنوبة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

علي الگيار

في الخمسينيات، وحتى الستينيات لم تكن هناك آلات كتلك التي نراها اليوم لتزفيت الشوارع، ولهذا كان العبء الأساسي يقع على (القيارة) وهم عمال مفتولو العضلات يمسكون بألواح مستطيلة من الخشب، أو بلوح واحد طويل يتوزعون للإمساك به، كل من طرف، ويقومون بجرف القير، كما تفعل الآلة الضخمة الآن، حين يرمى في جوفها القير فتأخذ برصفه وتوزيعه على المساحة المطلوبة، قبل أن تمر عليه الحادلة الثقيلة لتسويته بالأرض. عندما كنا نعود من المدرسة، في تلك الأيام، كنا نتوقف طويلا لمشاهدة عمال تزفيت الشوارع، وخاصة علي القيار، أحد هؤلاء العمال وهو يقوم بعملية التزفيت بمفرده ماسكاً بلوحه الخشبي الطويل والضخم جارفاً به القير الملتهب في عز الظهيرة. ما كان يستوقفنا أمام ذلك المشهد هو عضلات علي القيار المفتولة وصدره العريض المفصّل والمجسّم، الذي كان يكاد يتفتق حين يقوم بجرف القير بلوحة الخشب. كان علي القيار طويلاً بعض الشيء ومهيباً بعضلاته القوية، ووسيماً في الوقت ذاته. ولهذا كان موضع إعجاب لا النساء وحدهن، بل وكذلك الشباب ممن يرون فيه فتوتهم المفتقدة أو المؤملة. وكنا نحن، الذين نقف نتفرج على عضلاته، بعد خروجنا من المدرسة، أولاداً صغاراً لم نكن نفقه ذلك الحسد الدفين في قلوب شباب المدينة إزاء علي القيار، ولا كذلك افتتان النساء به.

تمر السنون وتحل الآلات الجديدة محل عمال القيارة، ولكن علي يظل موضع إعجاب لأنه لم يتوقف عن تنمية وصقل عضلاته. ومع إنه لم يدخل نادياً رياضياً لكمال الأجسام، إلا أنه استطاع أن يفوز ببطولة العالم في هذه الرياضة، وكان ذلك في بداية السبعينيات.

كان فوز علي القيار موضع فخر لأبناء تلك المدينة الفقيرة، التي كان علي واحداً منها. إذ كان يعيش وسط عائلة معدمة لا تملك شيئاً، وكان لديه أخوة صغار يعيلهم بمفرده. وحين كبر أحد أخوته وصار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شاباً، ذهب ليتعلم رياضة الملاكمة، فأصبح ملاكماً جيداً، خلال فترة قياسية. في أمسيات الخميس كان علي وشقيقه الملاكم، يسهران على سطح الدار، وما أن يدب دبيب الخمرة في رأسيهما، حتى تبدأ المناقرات التي تتحول إلى مشاجرة وعراك بالأيدي، من دون أسباب معلومة. كانت تلك هي (السهرة) الحقيقية لنا جميعاً، نحن جيران علي القيار وأخيه الملاكم. فبعد العاشرة من مساء الخميس الموعود، يتحول بيتهم إلى ما يشبه السيرك الصغير. يقف الناس على سطوح دورهم المجاورة ويذهب آخرون، مجازفين، إلى باب البيت، الذي تدور فيه المعركة الطاحنة بين الشقيقين القويين. والملفت في الأمر أنهما كانا يتقاتلان بقسوة غير متناهية. فحين تتاح فرصة للملاكم يشبع أخيه لكما حتى تنفجر الدماء من فمه وأنفه، لكن ما أن تتاح مثل هذه الفرصة لعلي القيار، حتى يتحول الملاكم بين يديه إلى ما يشبه الكرة أو الخرقة، يضرب بها هذا الجدار وذاك ثم يرمي به إلى السقف.

تنتهي المعركة في ساعة متأخرة من الليل بعد أن ينهك المتقاتلان تماماً، لكنهما يعودان في الأيام التالية إلى حياتهما الطبيعية وكأن شيئاً لم يكن. يظل علي القيار نجماً طوال سنوات السبعينيات، محتفظاً بذكرى فوزه ببطولة العالم مثل تعويذة. إلا أن نحس الفقر والبطالة لن تفارقاه يوماً. يضاف إلى هذا موقف الحكومة السلبي منه. فعندما جاء البعثيون إلى السلطة، قبل السبعين بسنتين، ادعوا أنهم سيطوون صفحات الماضي ويبدأون بصفحات جديدة، لكنهم ما أن ثبتوا أقدامهم في السلطة، حتى بدأوا بنبش تواريخ الناس والتفتيش فيها. ومن سوء حظ علي القيار أن له صفحة سوداء بالنسبة للبعثيين. فقد سبق له أن خرج في صبيحة 8 شباط 1963 لمواجهة انقلابهم، مثله مثل آلاف من الناس ممن كانوا يعشقون الزعيم عبد الكريم قاسم، أو أن لهم صلة ما بالحزب الشيوعي العراقي. وكان علي، في تلك الأيام، يجمع بين الصفتين: حبه لقاسم وصلته بالشيوعيين. وكان هذا يكفي ويزيد لاعتباره، من قبل البعثيين، شخصاً غير مرغوب فيه، حتى وإن كان فائزاً بجائزة نوبل.

في الثمانينيات، لف الفقر والإهمال حياة علي القيار حتى لم يعد يتذكره الناس لا سلبا ولا إيجابا، وتراجعت في أذهان الشباب وقلوب النساء، صورة الفتى الوسيم مفتول العضلات، والفائز ببطولة العالم للكمال الجسماني. وفي أواخر التسعينيات بلغت التعاسة بعلي القيار حداً

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أثار شفقة الصحافة، فكتبت عنه واحدة من الصحف تقول: ترى هل يعقل أن مواطناً بمستوى ما قدمه علي القيار لبلاده من إنجازات، يتقاضى راتباً تقاعدياً لا يساوي ثمن ربع دجاجة كل ثلاثة اشهر؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قضية جبار لفته[1]

كان الوقت عصراً، وكانت الشمس التي نرقبها من كوة ضيقة، وهي تغرب كل يوم تسارع إلى الاختفاء وراء الأفق، عندما دخل جبار لفتة حمام المعتقل، وبعد دقائق معدودة تسربت من فتحة باب الحمام السفلى بضع قطرات من دم أحمر قان مثل لون حبات الرمان الناضجة، ثم انسابت بهدوء كما جدول صغير آمن. في تلك الليلة، وعلى غير العادة، احتدم نقاش من نوع خاص لم يألفه معتقل الأمن العامة في بغداد. كانت ردهتنا الضيقة المجاورة للباب الرئيسي، تعج بالمعتقلين، الذين جاءوا من الردهات الأخرى، كي يستمعوا أو يشاركوا في ذلك النقاش الصاخب. لم يبق أحد لم يشارك في الحديث، حتى محسن فرحان، الذي كنا نتندر على نومه الطويل والثقيل، كان من أشد المتحمسين للنقاش. لم ينم محسن فرحان في تلك الليلة، مع أنه كان مولعاً بـ (نومة العصر) كما يسميها. كان يقول لنا: يا جماعة.. الحل الوحيد للخلاص من كآبة المعتقل ومن صراخ الحراس، هو النوم.. ناموا يا جماعة، ناموا، تصبحون على قرار إفراج إنشاء الله!

هكذا كان محسن فرحان يردد على مسامعنا كل يوم تقريباً وهو يهم بتغطية وجهه بتلك البطانية المهترئة، التي اشتراها من عزيز الكردي، نزيل الردهة المجاورة. لكن محسن فرحان ظل، في تلك الليلة سهران حتى الفجر، مهموماً ومكتئبا. فقد كان الوقت عصراً، وكانت الشمس التي نرقبها من كوة ضيقة، وهي تغرب كل يوم، تسارع إلى الاختفاء وراء الأفق، عندما دخل جبار لفتة حمام المعتقل، وبعد دقائق تسربت من فتحة باب الحمام السفلى، بضع قطرات من دمٍ أحمر قانٍ مثل لون حبات الرمان الناضجة، ثم انسابت بهدوء كما جدولٍ صغير آمن. فاحتدم النقاش في المعتقل على غير العادة.

1 ـ الحكاية حدثت بالفعل عام 1972

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كانت أمسياتنا، في الأيام الطوال الماضية، تمر رتيبة وثقيلة في الغالب، عدا تلك الليالي الشحيحة، التي كنا نتوسل فيها حامد الأسود، الصحافي المخضرم، لكي يغني لنا بعض أغاني محمد عبد الوهاب، التي كان يجيدها بطريقة مدهشة تجعل حتى حراس المعتقل يتركون مناوباتهم ويأتون ليتسمّعوا الغناء من خلف الكوة الضيقة للردهة. أما مشاغل المعتقلين وأحاديثهم فلم تكن تتعدى تلك المناقشات العابرة أو تلك الذكريات المملة. كان منذر العاني مثلاً، وهو ضابط شاب لم تمض غير بضعة أشهر على تخرجه من الكلية العسكرية، يحدثني يومياً وبتكرار غريب عن خطيبته سميرة، وكيف كانا يلتقيان كل يوم خميس في حديقة الزوراء الكبيرة وسط بغداد. وغالباً ما كنت أقبل بالاستماع إليه مضطراً وهو يكرر عليَ حكايته عينها وبالتفاصيل نفسها، فقد كنت أشعر أنه حين يحدثني عن ذكرياته تلك، إنما كان يتخفف بذلك من مزاج المعتقل الثقيل ومن ضنك الردهة الضيقة. كنت أتركه يواصل سرد حكايته المعهودة، متصنعاً الإنصات إليه بكل اهتمام.

أول شيء أفعله كنت أتقدم بهدوء نحو مدرب المعسكر العريف حسن مهنا (هكذا يبدأ منذر حكايته اليومية) أخرج من جيبي علبة دخان الروثمان وأقدم له سيجارة منها، فيبادرني العريف حسن بابتسامته الودودة وهو يردد بصخب: أكيد.. أكيد تريد مني شيئاً أستاذ منذر. لكنني لا أبادله الابتسامة بل أبدأ الكلام بهدوء بعد أن أجعل من صوتي رخيماً وحزيناً: أبو فلاح أمي.. أمي أبو فلاح مريضة جداً وعليّ أن أذهب لرؤيتها اليوم قبل أن تموت. فيرد العريف حسن بأسى وتشجيع: لا سمح الله.. لا سمح الله.. روح أخي منذر، بس رجاءً إذا صادفك سيادة المقدم.. أنا غير مسؤول.. مفهوم!

أما سميرة (يواصل منذر حكايته) فقد كانت تقول لأهلها أنني سأنقل إلى الشمال وعليها رؤيتي قبل السفر. وهكذا كنا نشبر الزوراء شبراً شبراً مع كيس من الحب الأبيض. آهٍ.. آه كم كانت تلك الأيام جميلة! وكم كنت أحلم! (يسرح منذر بالحديث وكأنه يحلم حقاً) لقد كنت أتصور في أيام الخميس تلك، إن عليّ أن أعيد صياغة الكون، أن أعيد ترتيب النهار على نحو جديد، أقصره قليلاً وأجعله أكثر هدوءاً، من أجل أن يتاح للعشاق والشعراء تمضية الوقت بأكبر قدر ممكن من المتعة والتأمل والصفاء... أو أن أجعل من زرقة السماء تميل إلى البنفسجي أو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى النهدي الفاتح.. أن ألوّن الريح ببعض الزهري مع شيء من الأصفر البرتقالي، وأخيراً أن أترك للمطر حرية الهطول الهادئ وقت العصر، مع تعديل بسيط في الغروب.. آهٍ.. آهٍ (يضحك منذر بأسى) كم كانت تلك الأيام جميلة! وكم كنت أحلم!

وفي يوم من أيام الخميس تلك يكتشف العريف حسن مهنا مصادفة أن منذر العاني كان يكذب عليه وإن أمه متوفاة منذ كان طفلاً في الخامسة من عمره، فيحذره في ذلك اليوم من أن هذا هو آخر خميس يسمح له فيه بالخروج من المعسكر.. يا للحظ العاثر! (هكذا يقطع منذر حكايته دائماً ثم يواصل السرد) تصور.. الشيء نفسه يحدث لسميرة عندما يقف شقيقها الأكبر ويقول لها بكل خشونة: هذه آخر مرة نسمح لك بالخروج من البيت فمنذ أشهر وأنت تقولين أن منذر سينقل إلى الشمال.. هل تلعبين علينا؟ كان ذلك آخر خميس يلتقي فيه منذر وخطيبته سميرة في حديقة الزوراء الكبيرة وسط بغداد، وبعد وقت قصير من ذلك الخميس يعتقل منذر ويأتون به إلى الأمن العامة مقيداً بعد أن ينتزعوا النجيمات الذهبية عن كتفه الصغير.

ماذا تفعل سميرة الآن؟ كمن يسأل نفسه، كان منذر، في كل يوم وبعد أن ينتهي من سرد حكايته، يسألني هذا السؤال: ماذا تفعل سميرة الآن؟ وكنت أتطلع إليه بعطف من دون أن أجيب عن سؤاله بالطبع لأنني، ببساطة، لا أعرف سميرة ولا أعرف ماذا تفعل الآن. أنا متأكد أن سميرة تقرأ الآن (يجيب منذر نفسه ويواصل) إنها تحب القراءة في الليل. نعم. نعم. ولابد أنها تقرأ في ديوان مظفر النواب، إنها تحب الشعر وقد حصلت على نسخة من هذا الديوان جلبها صديق كان في زيارة لبيروت.. إنها النسخة الوحيدة في العراق.. تصور... آه.. آه.. عمر وتعده الثلاثين لا يفلان... عمر وتعده وتعديت ولا طارش جذب وديت.. ولا مره شلت عينك تعرف البيت.. وكالولي عليك هواي.. كالولي.. كالولي.. يا عيني يا مظفر يا عيني يا سميرة. هكذا يختم منذر حكايته اليومية بترديد قصيدة لمظفر النواب ثم يعاجلني بطلب طريف قائلاً بتوسل: الله يخليك.. الله يخليك غني لي أغنية هذا مو إنصاف منك غيبتك هلگد تطول؟ فأبدأ بالغناء مشفقاً عليه أما هو فيغمض عينيه ليتسمع بهدوء ثم يبدأ بالنوم شيئاً فشيئاً، وقبل أن أكون قد أكملت الأغنية يكون منذر قد استغرق ونام.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ولكن في تلك الليلة، عندما دخل جبار لفتة حمام المعتقل، وبعد دقائق قليلة تسربت من فتحة باب الحمام السفلى، بضع قطرات من دمٍ أحمر قانٍ مثل لون الرمان الناضج، انسابت بهدوء كما جدول صغير آمن، واحتدم النقاش في المعتقل، نسي منذر العاني أن يحكي لي حكايته الأثيرة عن خطيبته سميرة، فقد اندمج في ذلك النقاش الصاخب الذي استمر حتى الفجر.

إنه هروب من الحياة، وسط جو الكآبة المخيم على المعتقل، جاءت عبارة منذر هذه، مثل ضحكة صاخبة في مجلس عزاء، فقد أشاح بعض المعتقلين بوجوههم نحو الباب وطأطأ البعض الآخر رأسه، عدا محسن فرحان فقد نظر إليّ كمن يريد أن يشهد أحداً على واقعة مريبة، ثم تحدث وهو يتمتم مع نفسه: إنها أسهل الطرق لاختصار مصائر الناس.. هروب من الحياة.. إنها تذكرني بعنوان لفيلم مصري!

لم يستسغ منذر تعليق محسن الساخر على كلامه، لكن جو الوقار السائد جعله يرد بهدوء: لكن أستاذ محسن ماذا تسمي انتحار إنسان.. وإنسان مناضل بالذات؟... أنا أحترم جبار لفتة مثلك تماماً لكن ماذا في وسعنا أن نعد فعلته غير هروب من الحياة.. من النضال.. من مواجهة التعذيب والـ... أنا أعتبرها أقصى حالات الشجاعة والإقدام (رد محسن مقاطعاً واستطرد) حين يمسك الإنسان بسكينة صدئة ويجز وريده وينظر إلى دمه وهو يتدفق، مثلما فعل جبار، فهذه في اعتقادي أقصى حالات الشجاعة وفعل لا يدانيه فعل آخر في الإقدام!

أنا أتفق معك أنه قد يكون نوع من أنواع الشجاعة (عقب منذر بهدوء ثم احتد) لكنها شجاعة سلبية يا أستاذ محسن، فالشجاعة الحقيقية هي أن يواجه الإنسان الظروف والمعاناة وأن يعطي المثال للآخرين على إمكان المضي قدماً بالنضال وتحقيق الأهداف. (هنا استشاط محسن غضباً ورد بانزعاج) أخي منذر ممكن ننهي هذا النقاش لأننا لن نتفاهم بهذه الطريقة.. فأنت تتحدث عن الإنسان وكأنه جهاز روبوت، إنسان من دون أحاسيس، من دون مشاعر ومن دون مشكلات روحية ونفسية.. أخي هناك أزمة روحية عامة، كونية. هناك الآلاف في الغرب ينتحرون رغم أن حرياتهم غير مقيدة ولا يشكون من قمع أو إرهاب أو أي شيء يتعلق بحياتهم المعيشية أو السياسية، فماذا نسمي هؤلاء.. ها.. هاربون

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من النضال وأي نضال؟ ولكن أنا لا أتحدث عن الإنسان الاعتيادي (رد منذر بهدوء مرة أخرى) أنا أتحدث عن الإنسان المناضل، الإنسان الذي نذر نفسه لمهمة إنسانية نبيلة. أخي منذر أرجوك ننهي هذا النقاش (كرر محسن طلبه إنهاء النقاش لكنه واصل الحديث) أنا ليس لدي فرق بين إنسان وإنسان آخر. كل البشر لديهم الأحاسيس نفسها، لكن بعضهم يرتضي حياته رغم شعوره باللاجدوى والإحباط والاندحار، وبعضهم الآخر ينهي هذه الحياة بسكينة صدئة أو بشيء آخر! وما هو رأيك أنت؟ (يسأل منذر بتهكم فيرد محسن) أنا اعتبر النوع الثاني أكثر شجاعة وصدقاً مع الذات، لأن النوع الأول، في اعتقادي، يكابر من أجل ملذات صغيرة وتافهة لا أكثر ولا أقل. ولماذا لا تنتحر أستاذ محسن؟ (سأل منذر في محاولة لإحراج محسن الذي رد بكل هدوء) لا أنتحر.. لأنني ببساطة لست شجاعاً يا سيادة الملازم، هذه كل القضية.. لا أكثر ولا أقل!

لم يكن هذا النقاش هو الوحيد الذي كشف لنا عن اختلاف وجهتي نظر منذر العاني ومحسن فرحان، فقد كانا يختلفان على الدوام، أو يتناكدان في الحقيقة، فقد كان منذر يتضايق من نوم محسن الطويل والثقيل فيتندر على هذا الموضوع في كل مناسبة، كان يقف على رأس محسن، في اللحظة التي يهم فيها بالنوم ويقول: هل تعرفون لماذا ينام محسن كل هذا الوقت؟ إنه في الواقع يريد أن ينسى حاضره، وأنا بالطبع لا أنكر أن الحاضر مرير وكئيب، لكن محسن لا يدرك إن النوم وسيلة اليائسين لعبور الحاضر أو القفز عليه! (فيرد محسن بعد أن يخرج وجهه من تحت البطانية) وكيف تريدنا أن ننسى هذا الحاضر المرير والكئيب يا سيادة الملازم؟

أنا أعتقد (يرد منذر) أن عبور الحاضر يتم بمواجهته أستاذ محسن لا بالنوم، لأن النوم على الحاضر يسبب لك سوء هضم في مستقبلك! (ينزعج محسن فيرد كالمهزوم) أخي هذي وسيلتي الوحيدة، ماذا أفعل؟.. أما أنتم دعاة تغيير الحاضر وامتلاك الماضي والمستقبل، فاترك لكم كل شيء.. اتركوني في همي الله يخليكم.

هكذا كانت النقاشات والمماحكات تبدأ ولا تنتهي، أما أنا فقد كنت مأخوذاً في تلك الليلة، بقطرات الدم التي انسابت من فتحة باب الحمام

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السفلى، مثل لون الرمان الناضج، وكما جدول صغير آمن، عندما دخل جبار لفتة حمام المعتقل، وكان الوقت عصراً وكانت الشمس التي كنا نرقبها من كوة ضيقة وهي تغرب كل يوم، تسارع إلى الاختفاء وراء الأفق. كان انسياب قطرات الدم تلك يذكرني بهدوء جبار لفته، وخاصة في تلك الأيام التي سبقت انتحاره. فلم يكن جبار يتحدث إلا نادراً وكنا نمازحه أحياناً ونحاول حمله على الحديث لكنه لم يكن يستجيب إلا بحدود الرد على سؤال أو أن يبتسم قليلاً ثم يعود إلى صمته وعبوسه.

مرة سألت جبار عن رفيقه فاخر مدلل (أو كما كنا نسميه ابن دعوته) فقد كانا قد اعتقلا معاً، وكانا يستدعيان إلى التحقيق معا أيضاً، لكنهما وفي كل مرة يعودان بها من التحقيق، كان يبدو عليهما الإرهاق من آثار التعذيب وكذلك الانزعاج من بعضهما البعض، وكان ذلك يجلب انتباهي على الدوام. وفي آخر مرة ذهبا فيها إلى التحقيق عاد جبار من دون فاخر، الذي لم نره بعد ذلك. ورغم الأسئلة المتكررة التي كنا نوجهها إلى جبار، فقد كان يتهرب أو يترك الردهة إلى ردهة عزيز الكردي، الذي كان يعطف على جبار كثيراً ويحاول شد أزره. كان عزيز الكردي وحده من يعطينا صورة متخيلة عن تفاصيل التعذيب الذي تعرض له جبار وفاخر، من دون أن تكون له أية صلة بالأمر طبعاً. كان يأتي إلى ردهتنا حال يعودان من التحقيق، ينظر إلى عيني جبار المتورمتين ويقول له: أكيد هذي ضربات الحقير ملازم نعمة.. إنه لا يضرب إلا على العينين، أليس كذلك؟.. وهذه.. هذه (ويؤشر عزيز على شفة فاخر المفلوقة) إنها بكل تأكيد من بوكسات الحقير عريف حامد.. فيومئ فاخر موافقاً وهو يبتسم بصعوبة. كان البعض من المعتقلين وهم يتلذذون بسخرية عزيز ولكنته الكردية المحببة، لا يصدقون كلامه، لكن البعض الآخر كانوا يندهشون من حدسه وقدرته على معرفة أسماء الجلادين وطريقة تعذيبهم للمعتقلين.

وفي الواقع لا يتمتع عزيز بغير المزاج المرح والساخر وبحصيلة ممتازة من أيام التعذيب التي جعلته يعرف بالضبط أين يضرب ملازم نعمة المعتقل وكيف يضرب العريف حامد. كان عزيز يعطف على جبار لفته كثيراً ويحاول إضحاكه وإدخال السرور إلى قلبه، خاصة في تلك الأيام التي أصيب فيها جبار بالكآبة بعد عودته من التحقيق من دون رفيقه فاخر. وفي كل مرة كان ضحية سخرية عزيز الكردي هو محسن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فرحان، فقد كان عزيز يجعل منه موضوعاً للتنكيت بسبب نومه الطويل والثقيل، كان يأتي إلى ردهتنا في اللحظة التي يبدأ فيها محسن (نومة العصر) يقف على رأسه ويقول: والله والله لو أن السيد العام (هكذا كانوا يسمون مدير الأمن العام) يعرف أنك تنام كل هذا الوقت لأطلق سراحك فوراً.. أكل ونوم يا مال الكوم.. شنو قابل فاتحين فندق؟ فيحاول محسن تجنب الحديث أو الرد على عزيز لكنه لا يتمالك نفسه فيضحك وهو تحت البطانية، ثم يرد عزيز على ضحك محسن: أيه طبعاً تضحك.. غداً يطلق سراحك فتصبح مناضلاً برأس الناس.. من يدري أنت كنت مخلصها نوم بنوم؟

كانت لدى عزيز كردي حكاية طريفة لم يبق أحد في المعتقل لا يعرف تفاصيلها وكان، كلما يريد روايتها، يقوم بتمثيل بعض الأفعال المضحكة فيها فيجتمع المعتقلون حوله من كل الردهات. يقول عزيز: أول أسبوعين من اعتقالي أكلت ضرب لا يتحمله الحمار حاشاكم.. ومرة أشرف على التحقيق معي السيد العام نفسه (يتلفت ويهمس لنا: يعني الأستاذ ناظم أبو حرب، بذاته!) كان عبوساً ومتجهماً إلى حد مخيف في ذلك اليوم وكان الجلادون من حولي يستعدون للحفلة. بدأ الضرب أول الأمر بالعصي والأيدي، ثم بالصوندات، ثم بالفلقة، لكن أخوكم صمد بقدرة قادر، وأخيراً ومن شدة انزعاجه ونفاد صبره قام السيد العام نفسه وركلني على بطني ركلة لم أتمالك أعصابي معها، فضرطت ضرطة ترددت أصداؤها داخل غرفة التحقيق، وإذا بالسيد العام يجلس على الأرض من الضحك، وبعد أن هدأ قال لهم: اتركوه.. اتركوه هذا القواد ما راح يطلع منه غير الضراط! ومنذ ذلك اليوم انتهى التحقيق معي.

وهكذا يضحك المعتقلون على حكاية عزيز حتى تدمع عيونهم. لكن في تلك الليلة، عندما دخل جبار لفته حمام المعتقل وتسربت بعد دقائق قليلة بضع قطرات من دم أحمر قانٍ مثل لون الرمان الناضج واحتدم النقاش داخل المعتقل، لم يأتِ عزيز الكردي إلى ردهتنا ولم يروِ حكايته الطريفة للمعتقلين. فقد ظل يبكي ويبكي بحرقة وألم في زاوية ردهته المعتمة. وكنت الوحيد الذي لم يشارك في النقاش، كنت مذهولاً بذلك المشهد، وبتلك القطرات الحمر من الدم القاني التي انسابت بهدوء كما جدول صغير آمن، فذكرتني بهدوء جبار لفته وصمته في أيامه الأخيرة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فقبل يوم واحد، كما أعتقد، من انتحاره، ألححت على جبار بالسؤال عن رفيقه فاخر: ما الذي حدث لفاخر يا جبار.. هل أطلقوا سراحه؟ هل اعترف عليك؟ هل أعدموه؟ احك.. احك، لماذا تتهرب كلما سألناك عنه؟ ألا يحق لنا أن نعرف شيئاً عن مصير صديق ورفيق كان يأكل ويشرب ويسهر معنا طوال أشهر عديدة؟؟ وبعد لحظات فوجئت بجبار وهو يبكي، كان ينشج بحرقة وأنين لا حدود لهما.. ثم نظر إليّ وكان الدمع لا يزال يترقرق في عينيه: ماذا أقول لك ومن أين أبدأ.. ومن يصدقني؟ (تحدث جبار برجاء وتضرع) فقلت له: أنا أصدقك يا جبار.. ثق بذلك، فأنا أعرفك جيداً وأعرف كم أنت طيب وصادق، ولكن قل لي ما الذي حصل لفاخر؟

لقد أجبرونا في جلسة التحقيق الأخيرة على أن نضرب بعضنا البعض. كيف حدث ذلك؟ تساءلت مندهشاً، فرد جبار قائلاً: هذا الذي حدث.. لا أعرف كيف ولكنه حدث. في البداية امتنعنا عن ذلك لكنهم ضربونا بقسوة، كانوا يضربون من يمتنع عن ضرب رفيقه بقسوة لا تصدق ويطلبون منه تنفيذ أوامرهم! وبعد ذلك، سألت جبار فقال: بعد ذلك نفذنا، أو قل نفذت أنا ما طلبوه مني، فقد قدرت، وكنت أعتقد أن فاخر قدر الشيء نفسه، إن ضربنا لبعض قد يكون أرحم وأقل قسوة مما نتعرض له على أيديهم، فقمت بضرب فاخر أول الأمر لكنه لم يرد عليّ فضربوه بسبب ذلك، ضربوه بوحشية وحقد، ومن شدة حزني عليه رحت أضربه وأطلب منه أن يرد عليّ، أن يضربني بالمثل لكي يكفوا عن ضربه، لكنه كان يمتنع في كل مرة دون أن يقول شيئاً، فصاروا يضربونه بقسوة أكثر وصرت أنا اضربه أيضاً لكي أخلصه منهم. كنت اضرب وأضرب وأصرخ به اضربني.. اضربني يا فاخر ثم أقوم بضربه، أضرب وأضرب وأصرخ به وكانوا هم يضربونه ويضربونه حتى..

حتى ماذا يا جبار، سألته فمضى يحكي ودموعه كانت تنزل على يديه المسبلتين في حضنه: حتى.. حتى بدأ الدم يتفجر من فمه ومن أنفه وحتى من عينيه.. لا أعرف من أين صار الدم يتفجر، لم أعد أرى شيئاً غير الدم، لقد سبح بدمه فسقط مغمياً عليه، وبعد لحظات سقطت أنا أيضا.. لقد سقطنا معاً، فاخر من شدة آلامه المبرحة وجروحه العميقة وأنا من تفاهتي وشعوري بالعار والخزي، وماذا بعد؟ كان ذلك آخر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سؤال وجهته لفاخر فرد يائساً: ماذا بعد؟ عندما عدت إلى الوعي، أحسست شيئاً فشيئاً بفعلتي الشنيعة فبكيت كما لم أبكِ من قبل، لقد كان عليّ أن أحترس.. هذا ما انتبهت إليه متأخراً وبعد فوات الأوان، وهكذا صار عليّ لا محالة، أن أدفع الثمن من نفسي.. لقد أحسست في تلك اللحظات، حين تيقنت تماماً إن غلطتي كانت فادحة وإن وهمي كان مريعاً، وكأن شيئاً عظيماً قد تحطم في روحي، شيئاً مهيباً وبراقاً قد انهار دفعة واحدة، شيئاً ناصعاً وشفافاً وخلاباً قد تلوث في مستنقع الخطأ أو تكسر كما تتكسر قطعة من زجاج. في تلك اللحظات شديدة البؤس والخجل والمرارة، فقدت الأشياء، كل الأشياء، معانيها وألوانها وطعمها، لقد استحال كل شيء إلى حجر.. إلى رماد.. وهكذا صار علي أن أدفع الثمن من نفسي لا محالة. وفي تلك الليلة، كان الوقت عصراً وكانت الشمس التي نرقبها من كوة ضيقة وهي تغرب كل يوم، تسارع إلى الاختفاء وراء الأفق، دخل جبار لفته حمام المعتقل، حز وريده بسكينة صدئة فتسربت، بعد دقائق قليلة، من فتحة باب الحمام السفلى، بضع قطرات من دم أحمر قانٍ مثل لون الرمان الناضج، انسابت بهدوء.. بهدوء.. كما جدول صغير آمن.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

موعد مع

السيد الرئيس

ـ في الخامسة مساء سيكون السيد الرئيس بانتظارك. ستمر عليك سيارة المراسم لتقلك إلى مقر وزارة الخارجية. تمام؟

ـ نعم تمام سأكون جاهزاً.

اغلق مدير المراسم الهاتف بعد هذه الكلمات الوجيزة، وتركني في حيرة من أمري. فقد كنت طوال الأسابيع الماضية، على أهبة الاستعداد لهذا اللقاء الموعود، لكنني قاربت حد اليأس من إمكانية رؤية السيد الرئيس، خاصة في مثل هذه الظروف الأمنية العصيبة.

كانت كابول تتحول إلى مدينة أشباح ما أن يهبط الظلام. فقبل ساعات من موعد حظر التجوال، الذي يبدأ في العاشرة مساء، تغلق المحال والحوانيت أبوابها ويسارع الناس في العودة إلى بيوتهم مبكرين، وبعد حلول موعد حظر التجوال تصبح الشوارع، نصف المضاءة، خالية إلا من دوريات الجنود الذين يجوبونها وهم يحملون البنادق الرشاشة وقذائف الآر بي جي ، ويقطعون سكون الليل، بين وقت وآخر، بصيحاتهم الهادرة عن "كلمة السر" كلما لاح لهم شيء يتحرك في الظلام.

في اللحظات التالية لاتصال مدير المراسم فكرت على عجل: الساعة تقارب الثالثة ظهراً إذن ليس لدي سوى ساعتين لأعداد نفسي. أن أتحمم واحلق ذقني وأكوي قميصي والمع حذائي، فمن غير المقبول أن يذهب المرء للقاء رئيس الجمهورية من دون أن يكون مظهره لائقاً.

سرحت برهة قبل أن ينبهني السفير أبو خليل إلى أن علي استثمار الوقت لتجهيز نفسي للقاء الرئيس. اعتذرت وهممت بمغادرة السفارة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الفلسطينية إلى المنزل. عند الباب الخارجي للسفارة شعرت وكأن كل شيء من حولي ارتج بقوة زلزال. البناية والجدران والشارع والأشجار، حتى زجاج النوافذ الذي تناثر أمامي وفوقي كان يرتج وهو على الأرض.

"إنه ثالث صاروخ هذا اليوم"! قال السفير أبو خليل، وهو يخرج من السفارة ليطمئن علي. وأضاف، وهو يضحك: طارت مقابلة الرئيس!

كان الخاطر ذاته قد مر بذهني في تلك اللحظة، وأنا اسمع من بعيد أصوات سيارات الإسعاف والإطفاء وهي تهرع إلى مكان سقوط الصاروخ.

قلت مازحاً للسفير، مع أن الوقت لم يكن وقت مزاح: وهل تتصور أن الرئيس يخشى من مجرد صاروخ لكي يلغي مقابلاته؟ ثم أنني مستعد أن أقابل الرئيس تحت وابل من الانفجارات. فهذا يعطي المقابلة حيوية أكثر!

قاطعني أبو خليل وكان لا يزال يضحك: وهل تتصور أنهم يخشون على حياتك أنت؟

رن جرس الهاتف، بعد أن عدنا الى داخل السفارة، ومع الرنين دوى انفجار آخر فأنقطع رنين الهاتف. صاح أبو خليل:

ـ الآن طارت مقابلة الرئيس حقاً.

ـ لا بل أنا من لن يذهب لمقابلة الرئيس.. رددت عليه، وأضفت "شنو ما رايد نفسي".

ضحك أبو خليل للعبارة الأخيرة التي قلتها باللهجة العراقية.
رن الهاتف مرة أخرى فرد السفير:

ـ ألو.. أهلا.. نعم موجود.. إنشاء الله مفيش خسائر بشرية.. أه نعم مفهوم.. طيب، طيب شكراً سنبلغه بالأمر.

اغلق سماعة الهاتف والتفت إلي:

ـ وما على الرسول إلا...

قاطعته قائلا:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ مفهوم سعادة السفير ولكنني لن أنتظر أبعد من يومين في ظل هذا الرعب.

علام العجلة؟ قال أبو خليل، وأضاف: اليوم أنت مدعو عندي. لدي قنينة عرق سوري، لوكان الرئيس طلبها مني ما أعطيتها له، ولكن لك أنت يختلف الأمر. كأس عرق وقليل من الشعر الشعبي والغناء الجنوبي الحزين، سيمضي هذا اليوم مثل الحلم وغداً الله يفرجها عليك وعلى الرئيس معاً.

* * *

مع الكأس الثاني بدأت شوارع الشام تضاء أمامي. توقف التاكسي فاندسست إلى جانب السائق وأغلقت الباب.

ـ إلى السفراء رجاءً.

ـ سينما السفراء؟ سأل السائق.

ـ السينما أو الشارع لا فرق فكلاهما يؤدي إلى نادي العمال!

ـ انطلق وهو يهم بتشغيل مسجلة السيارة.

كأننا في أبو نواس.. هواء رطب بعض الشيء، رائحة الفل تعبق من جانبي شارع ركن الدين، وصوت سعدون جابر يصدح بأغنية يا طيور الطايرة.

مرات كثيرة كنت أسأل نفسي عن ذلك السر الغامض والبسيط.. لماذا تكون الأغاني أكثر تأثيراً وجمالاً وإثارة للمشاعر حين نسمعها ونحن في حالة سفر أو سكر أو حزن؟

وكنت أفسر الأمر على النحو التالي: السفر والسكر والحزن حالات تفعل شيئاً مماثلاً ، إنها تجعل المرء يحلق خارج المكان، أو ينسى المكان لذلك فإن الروح تكون في حالة من الصفاء النادر من جراء التحليق وهو ما يجعلها تتفتح للأغنية أو للموسيقا أو الشعر مثلما تتفتح الوردة للريح والشمس.

لو لم تنته أغنية سعدون جابر لما انتبهت للسائق وهو ينظر إلي مندهشاً، فقد توقف عند الطاحونة الحمراء وظل ينتظر ترجلي من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سيارته. اعتذرت له ونزلت.

لا أعرف من أين جاءت لهذا الطريق القصير والضيق الموازي لسينما السفراء والمؤدي إلى نادي العمال، كل هذه الألفة. ربما لأنني أصادف فيه، على الدوام، الكثير من الأصدقاء الذين يكونون إما ذاهبين أو قادمين من النادي. ولكن هل يكفي هذا؟ لا شك أنه واحد من أسباب كثيرة بعضها له علاقة بالنادي العمالي الذي نرتاده بشكل شبه يومي، لنحتسي فيه البيرة، منها طبيعته الساحرة كمكان، فهو واحد من بيوت دمشق القديمة والكبيرة المعروفة بشناشيلها ونوافيرها وأشجارها الوارفة وبتلك الزوايا الظليلة والأليفة التي كنا نسميها دهاليز العشاق. كان النادي مكاناً للعشاق حقاً ولعلاقات الصداقة والتعارف، التي تنمو فيه مع أزهار الفل والياسمين الدمشقي الذي يغطي جدران النادي العالية.

* * *

فوجئت بيد أبي خليل وهو يربت بها على كتفي ويمد لي بالأخرى كأس العرق:

ـ اشرب. اشرب فين سرحت يا رجل.. ليس سوى يومين وتعود إلى سوريا.. اشرب نخب المغامرة التي تقوم بها من أجل الصحافة، غداً ستقابل السيد الرئيس، فالمتمردون أرسلوا بما لديهم من صواريخ هذا اليوم ولن يكون بإمكانهم جلب المزيد قبل أسبوع.

لم أكن قد أفقت بعد تماماً عندما أضاف أبو خليل:

ـ لو كنت وصلت قبل بضعة أيام فقط لكنت شهدت كيف يتقاتل الرفاق بوحشية من أجل السلطة، ولكانت تحقيقاتك أصبحت أكثر سخونة من مقابلة السيد الرئيس.

كنت سجلت في يومياتي، منذ الأيام الأول لوصولي إلى أفغانستان، مشاهدات شخصية تحت عنوان على ماذا يتقاتل الرفاق، وكنت أقصد بذلك الصراع داخل أروقة الحزب الحاكم، الذي تفجر بعد خروج القوات السوفيتية من البلاد.

كانت العاصمة كابول، التي تجولت فيها أياماً عدة، أشبه بقرية منها إلى مدينة.. مجمعات سكنية كالحة وفقيرة وشوارع متربة تملأ بعضها

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الوحول والمياه الآسنة، وأوضاع معيشية مزرية يمكن مشاهدتها من خلال حشود الشحاذين الذين يجوبون الشوارع ويفترشون الأرصفة. كان البعض من فاعلي الخير يبتاعون كمية من أقراص الخبز من الأفران ويوزعونها على المارة من الناس فيتلقفها الجوعى بامتنان وشكر. وكنت أشاهد في بعض الحدائق العامة التي تشبه الغابات الصغيرة، حشوداً من الأفغان وهم يفترشون زوايا الحديقة يدخنون الحشيشة التي كانت تزرع في مناطق شاسعة من أفغانستان وما يستهلك منها أكثر مما يصدر إلى الخارج.

برغم كل هذه المظاهر التي تكشف عن أوضاع البلاد المزرية فقد كان الصراع على السلطة قد بدأ يتفاقم بعد خروج القوات السوفيتية، التي ظلت سنوات طوال تشكل ضمانة ليس لتماسك الحزب الحاكم فحسب، إنما لحماية البلاد نفسها من الوقوع بيد المجاهدين المتطرفين.

في تلك الأيام بلغ الصراع ذروته، عندما قام وزير الدفاع شهنواز تني، بانقلاب عسكري ضد الرئيس محمد نجيب الله، فقاد طائرته الحربية وقصف مجمع الرئاسة في كابول ونشبت معارك طاحنة في الشوارع بين أنصاره والقوات الموالية للرئيس.

عندما وصلت إلى كابول بعد الانقلاب بأيام معدودات كانت شوارع العاصمة مليئة بفوارغ الرصاص وآثار المعارك.

لم يصدق السفير الفلسطيني أبو خليل عندما قلت له، وكنت قد وصلت للتو، من المطار، أنني قادم إلى أفغانستان بمهمة صحفية لكتابة تحقيقات عن الوضع السياسي وإجراء حوار مع السيد الرئيس نجيب الله، فقال لي وهو يخفي ابتسامة:

ـ صحفي عراقي الجنسية يحمل جوازاً سوريا ويعمل في مجلة فلسطينية، ويأتي إلى أفغانستان في مثل هذه الظروف للقاء الرئيس.. كيف ضبطتها يا رجل؟

* * *

كان الموعد مع السيد الرئيس، قد أزف عندما وصلت برفقة مترجم من السفارة الفلسطينية، إلى مقر وزارة الخارجية. وكان هناك صحفيان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أميركيان من صحيفة "الواشنطن بوست" قد وصلا قبلي، فانضممت إليهما. أبلغنا موظف الاستعلامات بأن الصحفيين سيسبقاني إلى لقاء الرئيس، لكن التسلسل تغير فأدخلت قبلهما إلى قاعة مستطيلة، وعلمت بعد ذلك، أن الرئيس نفسه طلب أن يكون الصحفي العربي، الذي هو أنا، أول من يقابله.

استقبلنا في القاعة ضابط برتبة كبيرة وأجلسنا في مكان محدد، بانتظار رؤية الرئيس، الذي دخل علينا فجأة من باب غير مرئي. سلم علي بطريقة ودودة قائلا أريد أن اسمع منك أولا عن أوضاع الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية، قبل أن أجيب عن أسئلتك. كانت مفاجئة أخرى بالنسبة لي، فاضطررت لتقديم بعض الشروح عن المستجدات في هذا الشأن، ثم بدأ يجيب عن أسئلتي الكثيرة.

دام اللقاء نحو خمسة وأربعين دقيقة، ختمناه بالتقاط مجموعة من الصور، بعد أن أهديته كوفية فلسطينية وضعها على كتفيه باعتزاز.

عندما أقلعت بي الطائرة من مطار أفغانستان الفقير، في طريق عودتي إلى سوريا، نظرت من النافذة فشاهدت البالونات الحرارية التي كانت تطلق من الطائرة تحسباً لصواريخ المجاهدين، الذين يستهدفون بها الطائرات، عادة، من الجبال المحيطة بالعاصمة كابول.

كانت المدينة تبدو من فوق غبراء كالحة إلا من بقع خضر قليلة ظلت تتوارى كلما ارتفعت بنا الطائرة.

قررت أن أكتب تحقيقي الصحفي عن الزيارة، بعد أن وفرت لي مضيفة سورية تعرفني مقعداً خالياً في جناح رجال الأعمال يتسع لثلاثة ركاب، مع صحن من الفستق الحلبي وكأس كبير من الويسكي.

استعدت لقائي بالرئيس محمد نجيب الله، وتذكرت كم كان شخصاً ودوداً وصريحاً، برغم ما توحي به ضخامة جسده والصرامة الظاهرة على ملامحه. تحدث لي قائلا "هذا لمعلوماتك الشخصية وليس للنشر"، عن الصراع داخل الحزب الحاكم وكيف أنه لم يعد يواجه حرب المجاهدين ضد النظام فحسب، إنما صار يواجه أيضاً حرب الرفاق من أنصار وزير الدفاع، الذي اختفت الروايات حينها عن مكان تواجده بعد فشل انقلابه العسكري. كانت الشائعات المنتشرة في المدينة تقول أنه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هرب إلى مدينة باگرام حيث تسكن قبيلته، وأنه يحشد من هناك للهجوم على العاصمة، وتذهب بعض الشائعات إلى الزعم بأنه بدأ اتصالات مع المجاهدين للتعاون معهم بهدف إسقاط النظام.

قال الرئيس: تصور كيف ستشعر بالألم عندماً تكتشف أن رفيقاً وصديقاً، عشت معه سنوات طوال، يحاول قتلك. وأضاف: ها نحن نجلس الآن في مبنى وزارة الخارجية بعد أن دمر شهنواز تني مجمع الرئاسة بطائراته.

عندما سألته عن دوافع تني للقيام بالانقلاب، قال لي الرئيس، أن قسماً من ضباط الجيش الكبار، وفي مقدمتهم وزير الدفاع، كانوا يعارضون بشدة طرح أي مشروع للسلام مع المجاهدين من أجل إخراج البلاد من أزمتها، ويفضلون الحسم العسكري. وكنت، مع قيادة الحزب المدنية نرى أن السلام هو السبيل الوحيد أمام أفغانستان، فقد تعددت الجهات التي تتآمر على النظام وتقدم الدعم والسلاح والأموال لهؤلاء المجاهدين، ولم نعد، بعد انسحاب القوات السوفيتية، نستطيع بمفردنا مواجهة كل هذه الأحزاب والمنظمات التي تقف وراءها باكستان والسعودية والسي آي أيه، فضلا عن تجار الحروب والسلاح.

توقفت عن الكتابة، بعد أن شعرت بتأثير كأس الويسكي، وعلى هدير محرك الطائرة كنت قد نمت جيداً حتى نبهتني المضيفة الصديقة أننا على وشك الهبوط في مطار دمشق.

كانت الشام في ربيع ذلك العام أشبه بواحة تفوح بالعطر، ويعرف الذين عاشوا في سوريا من العراقيين، وبالأخص الرعيل الأول من المهاجرين مطلع العام 1980 وما بعده، كم تترك تلك البلاد من محبة في القلوب ومن ألفة في النفوس لأهلها وحاراتها وشوارعها وحدائقها ومسارحها ونواديها. كانت الحياة في دمشق مدهشة بالنسبة لنا فهي مدينة جميلة ونظيفة ومفعمة بالحركة والحياة والسهر حتى ساعات متأخرة من الليل. وكان السوريون يستقبلوننا أينما ذهبنا بترحاب ومودة لم تكن متوقعة.

انغمست في الحياة اليومية، ولم يعد من يذكرني برحلتي العجيبة إلى أفغانستان سوى رسائل تصلني متباعدة من السفير الفلسطيني أبو خليل، الذي فاجأني يوماً بخبر مكرب: "لقد قتل صديقك الرئيس نجيب الله"

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هكذا يبدأ أبو خليل رسالته الحزينة ثم يصف لي مشهد الجريمة التي ارتكبتها حركة طالبان، التي ظهرت في أفغانستان فجأة واجتاحت مدن البلاد حتى وصلت إلى العاصمة كابول.

يقول أبو خليل" منذ بدأ تدهور الوضع في البلاد حاول الرئيس نجيب الله تفادي الأسوأ فعرض تقديم الاستقالة من منصبه ليمهد الطريق أمام تشكيل حكومة انتقالية مؤقتة ومحايدة لكن مقترحه رفض. ومع ذلك تنحى عن حزبه الحاكم وطلب اللجوء السياسي بمكتب الأمم المتحدة في العاصمة. وظل فترة محتجزاً هناك إلى أن قام عناصر من حركة طالبان باقتحام مبنى المنظمة الدولية ليلقوا القبض عليه حياً.

ويختم أبو خليل رسالته: "لقد علقوا صديقك الدكتور نجيب الله على عمود في إحدى الساحات العامة وسط كابول حتى لقي حتفه شنقاً. ويقال أيضاً أن مجاهدي طالبان لم يكتفوا بذلك فأطلقوا عليه الرصاص حتى يتم التأكد من مقتله.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

اليوم السَحب

منذ أشهر تأكدت من أن ذاكرتي لم تعد تعمل كما كانت في السابق.. بل منذ أسابيع قليلة فقط كنت فقدت الثقة بها تماما عندما فوجئت بأنني نسيت طقم أسناني وخرجت إلى المدينة بفم خاو. مع ذلك لم أتعظ وها أنذا أكرر خطأي في هذا اليوم الاثنين، فأقع في ورطة جديدة.

الساعة الآن هي الثانية ظهراً وموعدي في الثانية والنصف، ولو توفرت لي واسطة نقل في هذه اللحظة بالذات، فسأحتاج لما لا يقل عن أربعين دقيقة كي أصل إلى مكان الموعد.. هذا إذا كانت شوارع المدينة فارغة، فكيف بها في هذا الوقت من النهار؟

ارتديت ملابسي على عجل، وأنا أنط كأرنب لالتقاط حاجياتي المتناثرة في زوايا البيت، حقيبتي الجلدية، علبة الدخان، دفتر الهواتف.. عند باب الدار تذكرت محفظة نقودي.. فقلت.. شيء حسن أن يتذكر المرء أمراً قبل فوات الأوان.. لكن حتى هذه الحكمة قد لا تنفعني، لأن الأوان المطلوب قد يفوتني إن لم أصل في الوقت المناسب، وإذا حدث هذا فسأكون قد أضعت فرصة قد لا تعوض أبداً، فمنذ أشهر، بل قل سنوات وأنا ألهث وراء هذا المواعد وبعد أن حالفني الحظ بالتقاطه مصادفة، ها أنذا أكاد أفرط به في لحظة طيش ونسيان، مثلما يفرط صياد جائع بطريدة ثمينة.

قلت لسائق التاكسي.. أنا على عجلة من أمري.. لكنني لا أريد غير سرعة معقولة.. فلم يصدق هذا المتهور طلبي، وفي لحظات شعرت كأن السيارة طارت بنا متراً عن الأرض.. فاضطررت لأن اذكره بالحكمة المرورية السديدة.. في العجلة الندامة.. التفت إلي وقال بامتعاض.. والله حيرتنا! قلت له.. آسف لكنني أعتقد أن حياتنا أنت وأنا أكثر أهمية من أي شيء سيكون بانتظارنا.

صمت لحظة ثم خفف السرعة إلى درجة اضطرتني أن أقول له..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يعني لو طخه لو طلع مخه؟.. فلم يجبني بل أوقف السيارة جنب دكان ونزل يشتري علبة دخان.. أشعل سيجارة ونفخ في وجهي.. وهو يلقي علي ما يشبه المحاضرة.. أستاذ آني كان همي أن لا تتأخر عن موعدك فأنت صحفي وهذا واضح ولابد أن يكون لديك موعد مهم مع مسؤول..

مع.. آه.. نعم موعد مهم (قلت لنفسي) لأنه قد لا يتكرر أيها السائق الفهيم.

شكرته على اهتمامه بأمري وحاولت تجنب الدخول في نقاش لا معنى له.. لكن عبارة" أنت صحفي وهذا واضح " جلبت انتباهي فابتسمت له وقلت.. لكن كيف عرفت بأنني صحفي؟ قال.. ولو.. أستاذ المكتوب واضح من عنوانه.. النظارة الطبية زائد الـ.. قلت له.. مفهوم.. مفهوم، لكن ممكن تسرع شوي؟ لم أكمل العبارة حتى شعرت مرة أخرى، أننا طرنا متراً أو مترين عن الإسفلت.

حين وصلت جسر فكتوريا ونزلت من سيارة أبو صعب (كما ذكر لي أسمه) لم أصدق أنني ما زلت حياً.. تأبطت حقيبتي جيداً وسرت باتجاه البريد..

هنا الموعد.. نعم. المفروض هنا، عند باب البريد.. بل عند مدخل العلب البريدية على وجه التحديد.. تطلعت في وجوه الواقفين عند المدخل ثم في وجوه المارة.. عند كابينة الهاتف.. عند باعة بطاقات المعايدة. دلفت إلى رواق العلب البريدية.. عدت إلى الباب الرئيسي.. لا أحد.. وقفت جامداً قرب بائع بطاقات اليانصيب.. هل جئت متأخراً؟ ربما لكن دقائق قليلة فقط مرت على الموعد فكيف لا ينتظرني حتى دقائق.. كيف وهو يعرف تماما حاجتي الماسة لهذا الموعد؟ أنه يعرف ذلك جيدا بل ويعرف أيضا أننا قد لا نلتقي مرة أخرى على الإطلاق، إن لم نلتق اليوم.. نعم. اليوم بالذات وعلى وجه التحديد.

لمحني بائع بطاقات اليانصيب وأنا أحرك يدي في الهواء، فغمزني وهو يردد.. السحب اليوم.. الثلاثاء.. اليوم السحب.. الثلاثاء..

تسربت العبارة إلى ذهني ببطء كدبوس، ثم صحوت فجأة كالمصعوق على (الثلاثاء) وهي ترن كجرس.. الثلاثاء اليوم..

آه نعم. اليوم الثلاثاء. كان ذلك قبل أسبوع بالضبط عندما التقينا في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هذا المكان بالذات وكان بائع اليانصيب نفسه ينادي على المارة.. السحب الثلاثاء، لكن ذاك اليوم لم يكن الثلاثاء في الواقع بل كان الاثنين والبائع كان يقصد بالثلاثاء يوم الغد لهذا فقد تواعدنا أن نلتقي في اليوم ذاته من الأسبوع المقبل.. نعم. نلتقي البارحة إذن. هكذا كان يجب.. واليوم الثلاثاء.. يا فهمان يا صحفي يا أستاذ.. كدت تضحي بحياتك مع ذلك السائق المتهور، مع أن اليوم هو الثلاثاء واليوم السحب.. أين كنت البارحة إذن؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الرصاص

لم تكن حالة الشعور بالتمثيل تفارق ملامحه وحركاته، بل كان التكلف باديا حتى على طريقة كلامه، ولحظة خبط بيده في الهواء وكأنه يحاول مسك خيط الدخان المتصاعد من سجائر الجالسين قبالته. حتى انه حين التفت، التفاتة سريعة إلى الرجل الواقف بجانبه وقال جملته الوحيدة، قالها بعصبية واضحة التكلف، وكأنه بصقها، رغم ما يفترضه معناها الجازم. قال: لم يتبق لنا أمل قط، وصمت. أما الرجل الآخر الواقف إلى جانبه، فقد كان وقاره باديا حتى على مخارج الكلمات القليلة التي كانت تحمل الكثير من التفاؤل والاطمئنان عكس صاحبه ذي الهيئة الرئاسية التي كانت تبدو عليه من خلال الملابس التاريخية التي كان يرتديها، فقد كانت تلك الملابس أقرب ما تكون إلى تلك التي كان يرتديها قادة الجيوش في العصور الإسلامية، أو شيء قريب من هذا.

حين انتهى هذا المشهد، وهو لم يكن سوى إعلان عن فيلم جديد ستقدمه تلك السينما، التي لا اعتقد أن باستطاعتي تذكر ملامحها، أو تحديد شكل واجهتها مطلقا، فقط أتذكر أنها لابد كانت سينما، رغم صغر قاعتها التي لا تشبه قاعات السينما في بلادنا، فهي تحتوي على عدد قليل من صفوف المقاعد التي لم تكن هي الأخرى مثبتة في أرضية القاعة، كما هو معتاد في قاعات السينما الأخرى. وهي إلى حد ما قريبة الشبه بصالات النوادي التي تعرض الأفلام السينمائية للمنتمين لها فقط.

على أية حال، في تلك اللحظات بالضبط، وبعد انتهاء المشهد مباشرة، صمت أذني صفعة صوت أهوج هادر لشخص ما، كأنما لسعته أفعى، أو أنه اكتشف أو فوجئ بشيء خارق للعادة.. فقد انتقض رجل طويل القامة، كان يجلس في يمين المكان الذي كنت اجلس فيه، وهو يصرخ ويولول، ويلوح بيديه ويقول أشياء كثيرة بصوت عال، غير مفهوم ويؤشر إلى مقدمة الجهة التي اجلس فيها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في خضم الدهشة التي انتابتني من جراء صراخ هذا الرجل، لم أتمكن من تفسير الكلمات التي كان يطلقها، فقد نقلت نظري، وأنا تحت وطأة الدهشة ذاتها إلى المكان الذي كان يشير إليه ذلك الرجل، فرأيت المشهد ولم يكن هذه المرة على شاشة السينما، بل على شاشة الواقع، وفي القاعة ذاتها، وتيقنت في الحال، من مبعث صراخ الرجل طويل القامة، وسبب انتفاضته، وأيقنت مع نفسي، أن تلك المرأة الجالسة في حضن شخص ما، ومقعدها خال إلى جانبه، لابد أن تكون أما زوجة أو أختا لذلك الرجل طويل القامة الذي ما زال يصرخ ويولول، حتى أن مسؤول الإضاءة في السينما استجاب بسرعة عجيبة لصراخه، فأضاء القاعة وكأنه على موعد مسبق معه!

وسط هذه الحالة من الصراخ والدهشة، وإن تذكرت شيئا، فلن يكون أكثر من تلك التعابير البليدة التي لحظتها على وجه تلك المرأة التي تركت مقعدها وجلست في حضن ذلك الشخص، أو حالة الحياد والحيرة التي كان ينظر بها الجالسون في القاعة إلى تلك الواقعة، فهم لم يتيقنوا بعد من مدى قرابة المرأة لذلك الرجل المنتفض طويل القامة، لكنهم رغم ذلك، لم يبد عليهم الرضا عما يجرى، أو عما تفعله تلك المرأة بالخصوص، بسبب من قلة الحياء التي تتصرف بها في قاعة السينما وبهذه الفجاجة!

وإن تذكرت شيئا آخر، فلن يكون سوى الواقعة الأخرى التي حدثت في نفس القاعة وكأنها شريط سينمائي آخر، مشابه لما حدث، مع شيء قليل من التغيير في المشاهد، فقد انطفأت في تلك اللحظة، لحظة انتهاء مشهد الواقعة الأولى أشياء كثيرة. إضاءة القاعة، الزمان، المكان، والحالة المحسوسة السابقة ذاتها، وكأنني اجتزت مسافة زمنية فارغة، قد تكون حالة نوم امتد لساعات أو ربما لحظة واحدة. لقد مرت تلك الفترة المستقطعة من الزمن وكأنها جزء فاسد أو معطوب من شريط سينمائي أو حالة تحديق في فراغ. فقد حدث قطع فجائي لسلسلة الحدث، امتدت حتى حالة الصحو الأخرى، حالة التكرار التي وقعت للحادثة الأولى.. لكن بصورة أشد مأساوية، صاحبها عنف بارد من قبل الرجل طويل القامة نفسه.

لقد كرر ذلك الرجل انتفاضته وهب واقفا كالفرس وهو يزعق

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بهستيرية هي خليط من أصوات وكلمات سرعان ما تتآكل مخارجها بفعل الصراخ، وتتحول إلى عويل غير مفهوم، وهو ما أنفك يشير إلى الجهة ذاتها التي كان يجلس فيها ذلك الشخص والمرأة في حضنه، أما القاعة فقد عادت إليها الإضاءة بالسرعة العجيبة نفسها في المرة السابقة، فيما وقف الرجل المنتفض طويل القامة في المكان نفسه الذي وقف فيه قبل ذلك، أما المرأة والشخص اللذان كانا يحتلان المقاعد الأمامية في جهتنا فقد ظهرا وكأنهما لم يغيرا في جلستهما شيئا.. هي في حضنه وهو يطوقها بذراعيه والمقعد المخصص لها ما زال شاغرا وتعابير وجهها لم تفارقها البلادة مطلقا.

لقد أعاد هؤلاء الأشخاص المشهد الأول نفسه الذي هو ليس إعلانا عن فيلم جديد بالمرة، بل واقعة حية وملموسة أعادوه بشيء فيه براعة وإتقان غريبين، ووحشية مدهشة!

مد الرجل المنتفض يده فأخرج سلاحا ناريا من جيبه وصوبه باتجاه مقعد الرجل والمرأة اللذين كانا لا يزالان يجلسان بالطريقة السابقة نفسها فانهمر منه الرصاص بغزارة رهيبة، أستقر معظمه في رأس ذلك الشخص وأصاب بعضه ظهر المرأة. لقد شعرت في تلك اللحظة وكأنني استيقظت لأول مرة في حياتي تخيلت أن الزمن لابد قد مزقه هذا الرصاص الذي كان صوته يصل أذني كنقر مطر منهمر سريع وكثيف على سقف من الصفيح. وفي زمن قصير مشتعل برصاص ذلك الرجل المنتفض طويل القامة الواقف وسط القاعة والذي استمر يطلق الرصاص، حتى خيل إلي أنه أطلق ملايين الرصاصات وبشكل لا يبدو معقولا أو منطقيا.

لحظت فجأة أن زوجتي وطفلتي الصغيرة كانتا تجلسان في الصفوف الخلفية التي تلي مكان الشخص الذي أضاء الرصاص شعر رأسه الأسود الكث، وفيما كان جميع من في القاعة قد دفن رأسه تحت المقاعد، خوفا من ذلك الرجل المنتفض الذي ما زال يطلق ويطلق ويزعق ويصرخ، ويركل الأرض بقوة سلاحه الناري، قلت كلمات قليلة محاولا إسكات هذا الرجل وسلاحه الناري من قول أحاديث الموت المفجعة وسط قاعة صغيرة مكتظة بالمشاهدين، بينهم زوجتي وطفلتي الصغيرة، حتى أنني حاولت ضغط كلماتي القليلة تلك وقلتها بصوت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خفيض كي لا أجعله يتبين مصدره الأمر الذي شعرت فيه أن تلك الكلمات القليلة التي قلتها قد استغرقت في قولها دهراً كاملاً وبطريقة ما زلت أتذكر ذلها ومهانتها مظهرا فيها التشفي من ذلك الشخص الذي دك رأسه الرصاص ومحاولا إشعار الرجل المنتفض طويل القامة بالرضا عن فعلته الرهيبة تلك.. لكنه رغم ذلك لم يستسغ كلماتي القليلة تلك على ما يبدو، فصاح بصوت فيه توعد وحقد:

ـ أين هذا السكير الذي يدعوني للكف عن أطلاق الرصاص؟

ولو أنني قد رفعت رأسي في تلك اللحظة من هياجه وقلت: أنا.. لهشمه بقليل من هذا الرصاص الذي يتطاير من سلاحه يمنة ويسرة.. غير أنني حاولت جهدي بعد ذلك بقليل أن أرفع رأسي، لأتبين الحال الذي آلت إليه زوجتي وطفلتي الصغيرة، فوجدت زوجتي تحاول أن تنقل طفلتي من مقعد إلى آخر لتجنبها الرصاص، فاستبشرت لهذا الحال!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأميركان يأكلون الفلافل أيضا[2]

يسحب القلم من غطائه كأنما يجرد سيفا عن غمده. كل مساء يجلس أمام طاولته الأنيقة. يمسح الغبار عنها. يعيد ترتيب محتوياتها. الكابسة الزرقاء. خارزة الورق. علبة الحبر البنفسجي. صف الأقلام الملونة. الدبابيس لحزمة الأوراق التي سيكتبها. المصادر التي يتوقع العودة إليها. كل شيء جاهز.

يجرب وضع العناوين أولا. فهي تغريه على الكتابة أحيانا.

ـ الحكومة تستعيد هيبتها ونوري المالكي يؤسس للدولة الحديثة.

نعم المؤشرات الأولى لمعركة البصرة، قبل خرابها النهائي، تقول هكذا.

العنوان مناسب إذن. لنبدأ من مفهوم الدولة عند ماكس فيبر.

يلقي نظرة سريعة على صفحات أحد الكتب المصفوفة أمامه.

يكتب بحماسة.

ـ ليس هناك دولة في التاريخ الحديث، تحترم نفسها، سمحت بوجود جيش آخر إلى جانب جيشها الوطني، المصرح له دستوريا بحماية المواطن، عبر استخدام كل الأساليب بما في ذلك العنف المؤسسي المشروع.

ـ قوم... قوم شوف الأميركان ياكلون فلافل. ليش ما تجيب إلنه للعشا. مبينه خوش فلافل مادام الأميركان ياكلون منها.

---

2 ـ جزء من مادة طويلة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كل يوم يحاول أن يقنع زوجته بأنه لا يلعب بل يشتغل. من دون جدوى.

طار ماكس فيبر ونوري المالكي من المقالة.

يذهب إلى المطبخ بتثاقل. يقف إلى جانب الشباك. يزيح الستارة بحذر. يتلصص.

الجنود الأميركان، بكامل عدتهم، يأكلون ساندويتشات الفلافل ويشاركون الأطفال لعبة كرة قدم.

ماذا في الأمر؟ مشهد عادي جدا بشر يأكلون فلافل.

في الأيام الأولى عندما كانوا يأتون بسيارتهم الهمر، التي تشبه محمل العروس أيام زمان، من كثرة الشراشيب والأنتيلات والخرق المعلقة بها، كان يخشى الاقتراب من باب المطبخ. لكن بعد أن تكرر مجيئهم صار يخرج إلى باحة الدار. يسقي الحديقة وهو يتطلع إليهم من دون خشية.

مرة لوح لهم بالتحية من بعيد، وكان خائفا أن لا تفهم رفعة ساعده للأعلى، ولكنهم ابتسموا له.

لا يعرف ما هي متعتهم ولا متعة الأطفال، الذين يحيطون بهم، في لعبة كرة قدم في مساحة لا تزيد عن أربعة أمتار مربعة.
يضعون بنادقهم على سقف سيارات الهمر ويبدأون باللعب.

بملابسهم الثقيلة وعدتهم العسكرية الكاملة يبدون كلاعبي الكريكت أكثر منهم لاعبو كرة قدم.

لا يبتعدون عن بنادقهم المركونة على سقف الهمر سوى أمتار. يتركون الأطفال يجلبون الكرة عندما تذهب أبعد من هذه المسافة.

كل ما يفعله أحدهم هو رفع الكرة بقدمه ثم نطحها برأسه فتقع على صدر الطفل الواقف بمواجهته، فيردها الطفل إليه.

هذه كل تفاصيل المباراة.

ـ أخذوا واحداً من المركز الطبي. كتفوه وحطوه بالسيارة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ منو... الأميركان؟

ـ لا.. الحلاف.

ـ يعني إنتي تشوفين وإحنا عميان منشوف. منو هذا اللي أخذوه؟

ـ لك مو سالم أخويه يباوع عليهم من فوگ السطح. أنت متشوف زين من المطبخ.

ـ يله بلكي يطلع إرهابي ونخلص منه.

ـ يعني كل من ياخذونه الأميركان إرهابي؟ وهمه شنو لعد؟ البارحة قتلو عشرين عراقي بساحة النسور، نسيت؟ زوج صديقتي رجال رايح لوظيفته لا بيها ولا عليها لگو براسه خمس رصاصات.

ـ هذوله جماعة بلاك ووتر. لا تخلطين.

ـ وهذوله منو اللي جابهم مو الأميركان؟ بعدين أنته متخاف من هذا الحچي؟

ـ لا يابه شنو أخاف. لك آني ميت من الخوف بس دنحچي بيناتنا غير.

ـ بس بشرفك من يروحون الأميركان جيبلنا فلافل. كلش اشتهيتها.

ـ سالم هذا القفل مزنجر وكان المفروض نشتري غيره بس أنت يبدو صرت متخاف من شيء بعد الحادث.

ـ عيني أبو زينه من شنو أخاف بعد. مو شفت الموت بعيني. عشت وي الجثث أربع ساعات. لو تدري شلون انهزمت الضابطة الأميركية أم عيون الزرگ من شافتني نزلت من الثلاجة مال الموتى. أطباء المستشفى العراقيين حقهم. شافوا الطلقة داخلة من يم عيني وطالعه من وره راسي. شيگدرون يسوون خطية. ضربوني إبرة مخدر وكتبوا بالتقرير شهيد الإرهاب.. وأبوك الله يرحمه.

ـ بس سالم أنت چنت واعي من ضربوك إبرة المخدر؟

ـ أي چنت بعدني بحرارة الصواب بس ما أگدر أچجي. الدم مالي حلگي. لكن ربك رحيم أجو الأميركان باللحظة المناسبة. سئلوا عني الأطباء فگالولهم سالم الشرطي مات وحطيناه بثلاجة الموتى. آني چنت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعدني صاحي بس مخدر وما أگدر أصيح. لكن من انفتح باب الثلاجة حسيت هذي فرصتي بالحياة جمعت كل قوتي ونهضت ونزلت من الثلاجة وگامت الضابطة الأمريكية خطية ترجف من الخوف من شافتني. بعدها الله ينطيهم أخذوني لمستشفى بلد بالقاعدة مالتهم وهناك طلعوا الرصاصة من راسي وعالجوني ورجعوني لبغداد.

ـ تعالي أسمعي أخوچ. خوب مو آني اللي گلت خطية الأميركان الله ينطيهم.

ـ يلّه سالم هسه روح جيبلنا قفل وفلافل.

الورق أشبه ببقايا طعام فاسد. الحديث عن الفلافل حرض حاسة الشم لديه.

ياسر لا يترك له مجالا للتأمل النظري. أحاديثه تفسد الأفكار التي يختزنها منذ زمن بعيد. ماكس فيبر قد يكون على حق ولكن نوري المالكي أيضا على حق ماذا يفعل غير ما يفعله. لو افترضنا أن فيبر لا يزال حيا وطلب منه المالكي النصيحة هل يقول له أترك الخارجين عن القانون يا مالكي يحملون السلاح ويمرحون في الشوارع وتفرغ لبناء مؤسسات الدولة أولا. يستحيل أن يكون ماكس بهذه السذاجة كيف يمكن أن تبنى مؤسسات دولة وهناك من يحفر تحتها؟

الحل الوحيد هو أن يترك كل شيء ويقوم يتعشى فالجنود الأميركان لم يبقوا الكثير من الفلافل كما يبدو.

ـ شنو ما خلصت المقال؟ لو كل الصحفيين مثلك كل أسبوع يكتبون مقال چان ماتو من الجوع. يمعود بيهم يكتب خمس مقالات باليوم.

ـ تدرين آني أخاف من المقال أكثر من الجوع.

ـ ليش أنشاء الله تريد تكتب على الحكومة؟

ـ لك الحكومة خطية حتى لو الواحد يشتمها ليل نهار متسويله شي. مو مثل قبل يسلخون جلده.

ـ لعد تكتب على الأميركان؟

ـ ما حزرتي. ليش الأميركان يقرون يكتبون؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ ما ظل غير عدنان الدليمي.

ـ أهووه المگرود من يوم طبو عليه وأعتقلو حراسه سكت. يگولون أخذوا منه تعهد بعد ميفك حلگه.

ـ والله عجزتني. ليكون تكتب على رب العالمين. آني أعرفك كافر وما عندك لحيه مسرحه.

ـ سمعتي مرة بحياتك واحد عاقبه رب العالمين لأنه كتب عنه مقال صحفي. هاي جماعة الرسوم الدنماركيين شسوالهم الرسول محمد. ماكو أرحم من رب العالمين ونبيه الكريم. خوفك من عباده. وخاصة أصحاب العمايم اللي يدعون تمثيله على الأرض وهوه سبحانه ما مكلفهم ولا طالب منهم.

ـ يعني گلي مراح تنام اليوم؟

ـ جاي.. بس أقفل الأبواب.

ـ سالم جبت القفل؟ أقفل باب الحوش زين.

ـ وين قفل المطبخ هباوي؟

ـ بالشباك بس تأكد من قفل المولدة.

ـ المولدة مقفولة بس قفلتوا باب السطح زين؟

ـ أي سالم قفله بس أنت أقفل الشبابيك.

ـ الشبابيك قفلتها بس قفل المطبخ مالگيته.

ـ أقفل المطبخ بالسرگي وكافي. شنو قابل راح يبوگون الجدوره؟

ـ أهووه ليش آني خايف على الجدوره! آني خايف على روحي مالها قفل.

أكتب بدخان هجرك قصتي
ما ظل بيه غير رماد حزني
وأنتظر منك تجي.
عمري كتاب محنه ونوح

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وأنته بآخر السيرة نبي
دوريت بكل صناديگ الأيام
كل تصاويرك بروحي
وكل مواعيدك حچي
ماخذ وياك البحر والنوم وشموع الليالي
وآنه تاركلي البچي.

ــ الله...الله. يـا أخـي خليـك شـاعر وبـس. شـلك بدوخـة السياسـة والصحافة والمقالات.

ـ أيه ومنين ناكل. نطبخ شعر شعبي على تمن.

ـ أبو الزين ربك ما ينسى عبده. هاك أخذلك نفس وريح راسك.

ـ سالم تدري أنته لو تفكر بمعيشتك بكد ما تدخن أركيله چان هسه أنته مليونير.

ـ شلون أستاذ فهمني؟

ـ يا أخي أنت شايف نفسك شگد تدخن وشلون تدخن. تسحب النفس من الأركيله كأنك تريد تنتحر بيه مو تريد تدخنه. حلگك يصير مثل صالنصة سيارة عتيگه.

ـ أيه وبعدين أستاذ؟ كلامك حلو.

ـ لا ماكو شي حبيبي، أحچي ويه نفسي. إسحب إسحب گبل ما يصير منع التجول.

ـ أستاذ آني سني وشرطي. زين؟

ـ وهاي شنو دخلها بالتدخين.

ـ دسمعني أستاذ شويه الله يرحم أبوك.

ـ تفضل سالم ولا تهون.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ آني سني وشرطي. زين؟ السنة ما راضين عليه لأني أشتغل ويه الحكومة الشيعية. والحكومة تشك بيه لأني سني. هاي شلون تحلها أستاذ؟

ـ سالم أنته شويه مزيدها. يعني لازم تشتغل ويه الإرهاب حتى يرضون عليك السنة. ثم لازم تگول بعض السنة المتطرفين مو تعمم.

ـ أستاذ لتگلي معمم ولا لابس سدارة. ترى آني مو طائفي بس أحچي ضميري. تعال شوف غرفتي بيها صور الإمام الحسين والإمام علي.. وحتى العباس أبو فاضل.. يا أخي أحبهم مو بإيدي بس تعال إقنع الشيعة.

ـ سالم اللي تگوله صحيح. وآني شيعي وأحب عبد القادر الكيلاني. شنو بيها. بس جيب اللي يفتهم عليك وعليه.

ـ هسه أفهمت عليه أستاذ؟

ـ سالم شلون وياك يعني على هالحساب مراح أگدر أخلص المقالة.

ـ أستاذ يا مقالة يا نقالة! دا أگلك حطوني بثلاجة الجثث ولو مو الأميركان چان هسه آني. آني آسف دوختكم. بس..كس خواتنا داير حبل... لوما رضيعتي گاعده چان فشّرت.

ـ لا هم زين ما فشرت.

ـ مو گتلك أستاد ألف مرة. اللي أطلقو علي الرصاص أعرفهم. من منطقتي ومن طائفتي أستاد صدگني.

ـ أجو. هسه أرتاحيت. صوتك يلعلع واصل لمجلس البلدية وجماعة الصحوة گاعدين بالباب وچانو يباوعون علينا. دخن أرگيلتك وگوم تعشى ونام.

زوجتي تعرف أن سالم لم يعد كما كان قبل الحادث. كان رزينا وعاقلا، كما تقول. صار مثل الطفل يزعل من أبسط شي.

ـ خليه يسربت حبيبي. الرصاصة، عيني، أثّرت عليه هواي. دخلت بمخه وطلعوها الأميركان.

ـ ولو مو الأميركان. الله لا يوفقهم. چنا خلصنا منه ومن أركيلته.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ عوذه. عوذه منك. الله لا يوفقك هذا أخوي شمسويلك.

ـ أمـزح ويـاچ حبيبـي. شـعندي غيـرچ وغيـر سـالم. بقـى شـي مـن الفلافل؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تحولات شارع مريدي

لم يكن شارع مريدي في أعوام السبعينيات مجرد شارع بالنسبة لنا بل كان أشبه بجادة الشانزلزيه الباريسية. كنا حشدا من الشعراء والأدباء والمثقفين من أبناء المدينة يسكن البعض منا في الداخل والبعض الآخر في الجوادر وكان شارع مريدي الفاصل بين القطاعين.

كان علينا في كل ليلة تقريبا أن نتزاور ونلتقي فنذهب تارة إلى النواحي التي يسكن فيها عريان السيد خلف وكاظم أسماعيل الكاطع وكريم العراقي وتارة نذهب إلى حيث يسكن عبد الله صخي وفاضل الربيعي وحميد قاسم وكاظم الحميري وكان شارع مريدي طريقنا في الذهاب والإياب. في منتصف شارع مريدي من جهة الداخل كان يسكن صديقنا هاشم مجلي. وفي ليلة الأول من ايار 1973 تزوج هاشم وفي ليلة عرسه ذاتها تم اعتقالي. كنا المجموعة نفسها نحيي حفلة صديقنا هاشم في غرفة داخل منزله وكانت حفلة العرس الرسمية مقامة في الشارع العام.

قبل هذا التاريخ بأسبوع تداولت المدينة أنباء عن تعيين "جلاد" محكمة الثورة مسلم الجبوري قائمقاما لمدينة الثورة .وبالترافق مع هذه الأنباء تسربت شائعات تقول أن هناك قائمة بأربعين شخصا "معارضا للنظام" مطلوب اعتقالهم. وتؤكد الشائعات أن الشاعر كاظم الحميري "الذي أعدمه النظام بعد ذلك بسنوات" على رأس تلك القائمة. كانت هذه الأنباء والشائعات موضوع السهرة في عرس هاشم مجلي في شارع مريدي. قال عريان السيد خلف ناصحاً ومازحاً مع الحميري: "عليك أن تأكل جيدا لأن العشاء في الأمن العامة يقدم في الخامسة عصرا."

بعد ربع ساعة دخل علينا صديق وقال لي هناك من يسأل عنك خارج المنزل. خرجت فأمسك بي ثلاثة أشخاص قالوا لي:" أنت جمعة الحلفي.. تفضل معنا". أخذوني مخفورا إلى قائمقامية المدينة ورموني في غرفة ضيقة وجدت فيها رجلا آخر كان معتقلا قبلي. بعد العاشرة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ليلا جاء ضابط الخفر فسألني لماذا أنا هنا فقلت له لا أعرف لماذا أنا هنا. ذهب ثم عاد بعد ربع ساعة وقال لي: إذا أطلقنا سراحك الآن هل تعود بعد يوم العطلة فأقسمت له بالعباس (أبو فاضل) أنني سأعود. أطلقني وعدت إلى البيت بعد أن كان خبر اعتقالي وصل إلى الأهل. بعد العطلة وفي الصباح الباكر عدت بقدمي لأسلم نفسي وكان ذلك لقائي الأول مع مسلم الجبوري الذي استقبلني بالشتائم والإهانات ثم قال لي: "ستُرحّل إلى مديرية أمن بغداد فأنت مطلوب لها". رُحّلت وقضيت ثلاثة اشهر في معتقل الفضيلية.

في ليلة اعتقالي تلك تفرق الشعراء والمثقفون سريعا بما في ذلك العريس هاشم مجلي خوفا من الاعتقال. وقد سمعت حينها أن كاظم أسماعيل الكاطع كتب قصيدة من وحي الحادثة. يومها كان حزب البعث طرح على الأحزاب ما يسمى بميثاق العمل الوطني لتشكيل الجبهة الوطنية. يقول كاظم في مطلع القصيدة: أجه الميثاق ألف طگعة وألف رگعة.. خلص منها الحميري وطاحت بجمعة.

* * *

عندما عاد البعثيون إلى السلطة مرة ثانية في العام 1968 كانوا حفنة من الضباط وقلة من الحزبيين. وكانت عودتهم تلك مثار شكوك وريب في الشارع العراقي بسبب تاريخهم الدموي في انقلاب 8 شباط 1963.

كانت مدينة الثورة حينذاك شبه مغلقة من الناحية السياسية للقوى اليسارية، والشيوعيين على وجه الخصوص. لهذا كنا نتحرك في المدينة ونعقد اجتماعاتنا الحزبية من دون خوف ما عدا الاحترازات المطلوبة في العمل السري.

بعد عام أو عامين تنبه البعثيون لأهمية المدينة كقاعدة شعبية وجماهيرية واقعة تحت تأثير قوى معارضة لهم فباشروا بعملية تبعيث سريعة في أوساط العسكريين والموظفين من سكنة المدينة، عبر استخدام أساليب الترغيب خاصة (مثل منح الدرجات الوظيفية والرتب العسكرية) لأنهم لم يكونوا قد امتلكوا بعد القوة اللازمة لفرض سطوتهم.

وحتى ذلك الوقت كان البعض من الأصدقاء ممن بدأ البعثيون

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

التحرك عليهم لكسبهم يخشون الإعلان عن بعثيتهم الجديدة بل كانوا يخجلون من ذلك بسبب نفور الناس من اسم البعث نفسه .

وكان صديقنا "رحيم" يأتي إلى المقهى وهو يخبئ في جيبه كراساً صغيراً يقرأ فيه خلسة وفي غفلة عنا. وبعد اشهر عرفنا أنه كان يقرأ في النظام الداخلي لحزب البعث. دخل رحيم، وكان عريفاً في الجيش، دورة لنواب الضباط وتسمى دورة الموس تخرج بعدها ضابطاً.

في تلك الفترة عينت السلطة قائمقاما جديدا للمدينة هو رئيس محكمة الثورة مسلم الجبوري. وكان المغزى أو الهدف من تعيين هذا الجلاد هو تأديب القوى المعارضة للنظام التي كانت حسب تعبيره "تسرح وتمرح في المدينة من دون رادع". وبالفعل أصدر الجبوري منذ الأيام الأولى لتعيينه أوامر باعتقال العشرات من المعارضين الناشطين، كما بدأ بتأسيس المنظمات الحزبية في المدينة

قبل ذلك كان لدينا مقهى شعبي نجلس فيها مساء نحن شلة من المثقفين والشعراء المحسوبين على الحركة اليسارية، وقد أقنعنا صاحبه أن يسميه مقهى الميثاق في إشارة إلى ميثاق العمل الوطني الذي كان مطروحاً للحوار بين السلطة والأحزاب الوطنية الأخرى.

كان المقهى يقع على طرف شارع مريدي من جانب الداخل وكان يتوافد عليه الرواد من مختلف قطاعات المدينة. وكنا نخوض فيها نقاشات وحوارات جريئة في السياسة والأدب. فسمع مسلم الجبوري بقصة هذا المقهى ورواده بعد حادثة وقعت في الأول من حزيران 1973 كانت هذه الليلة تصادف ذكرى تأميم النفط وفيها أقام البعثيون احتفالا داخل المقهى فعلقوا النشرات الضوئية والشعارات وصور أحمد حسن البكر. وفي ساعة متأخرة جاء "حميد الساعدي" وهو أحد الشيوعيين الذين كانوا لا يطيقون أسم البعث فأختلق شجاراً مع صاحب المقهى وقام بتخريب الاحتفال.

كانت هذه الحادثة نقطة النهاية لوجود مقهى أسمه الميثاق في طرف شارع مريدي. فقد أغلق المقهى وأعتقل الشيوعي المتطرف وقضيت معه عدة أشهر في أقبية الأمن العامة لأن المنظمة الحزبية اتهمتني بتحريضه على تخريب احتفالات حزيران وتمزيق صور الرئيس البكر.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

* * *

كان" مهدي أمانة" الشاب القصير المربوع والعاطل عن العمل من أوائل الذين أصبحوا بعثيين في قطاع 54 القريب من شارع مريدي. وكان يجلس معنا في مقهى الميثاق وبرفقته بعض الحزبيين يقضون وقتهم بالتنصت على أحاديثنا نحن شلة الشعراء والأدباء والمثقفين .كنا نقول عن مهدي أمانة أنه "بعثي.. بس خوش ولد."

بعد خروجي من المعتقل زارني مهدي أمانة ليخبرني معتذرا "أنه ليس من كتب التقرير عني إنما حزبي آخر ولم يستطع ثنيه عن ذلك". وقال مهدي أيضا "نحن نعرف أنك لست المحرض على تخريب احتفال حزيران ولكنك كنت معروفا لنا شيوعياً وهذا هو السبب."

قضيت في مديرية الأمن العامة نحو ثلاثة أشهر ومعي حميد الساعدي "أبن دعوتي" الذي خرب الاحتفال في مقهى الميثاق ليلة الأول من حزيران 1973. كما التقيت هناك رفيقا آخر هو "جمعة عبد الله" كان مسؤولا في منظمة الحزب الشيوعي في المدينة ومتهما بجريمة قتل أحد الشيوعيين كما قيل لي حينها .وقد علمت من "جمعة" أن الشيوعي المقتول كان قد دل رجال الأمن على وكر للحزب فيه أسلحة وتسبب بمصادرتها واعتقال عدد من الرفاق. ولهذا السبب جرت تصفيته بتهمة "خيانة الحزب."

كان معتقل الأمن العامة يتكون من زنازين كبيرة وأخرى انفرادية. في كل واحدة هناك ما لا يقل عن عشرين معتقلا وهو أكثر من ضعف ما تتسع له مساحتها، عدا زنزانة واحدة فيها نزيل واحد فقط .

كلما جاء معتقل جديد تأخذه خطواته مباشرة إلى هذه الزنزانة لأنها شبه فارغة فيدخل ويجلس وبعد ساعة يتركها إلى الزنازين المكتظة . كان يقال له، بعد أن تقدم له سيجارة وينتهي من تدخينها، أن هذه الزنزانة مخصصة للجواسيس فيهرب الضيف سريعا. كنا أنا وجمعة عبد الله على حافة الإفلاس. لم يكن لدينا ما نبتاع به السجائر وهي بضاعة تماثل الذهب في قيمتها بالنسبة للسجين، ولهذا كان المعتقلون الآخرون "يعطفون" علينا فيزودوننا بالسجائر بين وقت وآخر.

علم النزيل الغامض في الزنزانة المخصصة للجواسيس بعوزنا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وحاجتنا إلى السجائر فأرسل لنا" گلوص ديموريه" وهي من أفخر أنواع السجائر حينها. ومن خلال الحديث الذي دار بين الوسيط الذي جلب الهدية لنا "وهو معتقل كردي من الحزب الديمقراطي الكردستاني" وبين جمعة عبد الله علمت أن قصة زنزانة الجواسيس مجرد نكتة مفبركة وأن نزيلها الغامض هو شخصية معروفة وقوية ولهذا يهابها حتى ضباط الأمن فيلبون له كل طلباته وحاجاته أيا كانت باستثناء اطلاق سراحه بالطبع.

ظل الأمر غامضا بالنسبة لي خاصة بعد أن رفض جمعة عبد الله بإصرار قبول هدية الديموريه الثمينة واعتذر للوسيط قائلا له: حتى لو متنا من الجوع لن نقبل مساعدة من هذا الشخص. بعد مغادرة الوسيط قص علي "جمعة" حكاية نزيل زنزانة الجواسيس.

* * *

لم أكن قد سمعت باسم "جبار كردي" قبل أن يقص علي رفيقي في المعتقل "جمعة عبد الله" حكاية هذا الرجل الغامض الذي كان يحتل بمفرده زنزانة يسميها زنزانة الجواسيس لكي لا يشاركه فيها أحد من المعتقلين الذين كانت تكتظ بهم بقية زنازين مديرية الأمن العامة.

في أمسيات كثيرة كنا نراه يجوب باحة المعتقل الضيقة ذهابا وأيابا وهو يرتدي طقما أسود أنيقا مع ربطة عنق حمراء وحذاء لماع. كان أحيانا ينادي على أحد الضباط فيأتيه "ملازم نعمة" مسرعا ليلبي طلباته على الفور وغالبا ما تحتوي الطلبات سجائر ديموريه التي يدخنها عادة ومواد غذائية للعشاء أو الفطور.

كان جبار كردي الوحيد الذي يحظى بزيارات عائلية في المعتقل ولكن بطريقة غريبة لا تخطر على بال الشياطين. كان شقيقه الأصغر "ستار" وهو الزائر الدائم له يقوم باختلاق شجار بالسكاكين بالقرب من مديرية الأمن فيعتقلونه ويأتون به إلينا. يقضي ستار مع شقيقه جبار يومين أو ثلاثة ثم يطلق سراحه. ومن خلال هذه الزيارات كان ستار يطلع شقيقه على أخبار العالم خارج المعتقل ومنها أخبار الوساطات التي تبذل من أجل إطلاق سراحه .

في الأيام الأولى لاعتقالي في تموز العام 1973 كان حراس المعتقل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ومعهم بعض الضباط يأتون في ساعة متأخرة من الليل فيخرجون جبار كردي من زنزانته باحترام ويصطحبونه إلى التحقيق. وبعد ساعة أو ساعتين يعودون به أشبه بالجثة وهم يسحلونه حتى باب المعتقل ويرمونه لنا. كانت لدى بعض المعتقلين مواد للإسعافات الأولية مثل المراهم والدهون والشاش الطبي فنبدأ بتطبيب الجروح والكدمات في جسد جبار. وفي اليوم التالي يجلس صباحا مثل الذئب وهو يعربد ويشتم الذين حققوا معه الليلة الماضية.

في مرة من المرات جرت "حفلة التحقيق" مع جبار في الباحة الخارجية للمعتقل. ولقربها من الزنازين فقد كنا نسمع صراخه وهو يضرب بالعصي من قبل مجموعة من الضباط بحضور مدير الأمن العام ناظم كزار ورفيقه محمد فاضل عضو القيادة القطرية آنذاك. كان جبار يصرخ بأعلى صوته وهو يقسم "وحق راس صدام ما قابض من الملا فلس واحد".

في تلك الليلة بالذات علمنا أن قصة اعتقال جبار كردي مدبرة من رؤوس كبيرة في قمة السلطة ولها صلة باتهامات لفقها له ناظم كزار ومحمد فاضل على خلفية عداوات شخصية وعمليات قتل، وهي أنه كان يتعاون مع الحركة الكردية المناهضة للنظام حينذاك ويستلم مبالغ كبيرة من المال من الملا مصطفى البارزاني. أما القصة الحقيقية فهي أبعد من تلك الاتهامات الملفقة بل وأخطر منها بكثير.

* * *

هناك روايتان عن سبب اعتقال جبار كردي في مديرية الأمن العامة (نهاية السبعينيات) على الرغم من أنه كان يتمتع برعاية خاصة من جانب الرئيس أحمد حسن البكر وقياديين آخرين في حزب البعث كانوا يعدونه "بطلا" من أبطال الحزب. فهو أحد "شقاوات" شارع الكفاح ومنطقة الفضل المعروفين كما أنه كان عضوا في جهاز "حنين" الذي يديره صدام حسين وهو الجهاز الأمني المسؤول عن عمليات الاغتيال وتصفية الخصوم وكسر الإضرابات

الرواية الأولى هي المتداولة داخل المعتقل وقد سمعت بعض تفاصيلها من جبار شخصياً خلال جلسة في "زنزانة الجواسيس" دعانا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إليها أنا ورفيقي جمعة عبد الله. تقول هذه الرواية أن خلافا نشب بين أحد أشقاء جبار وبين محمد فاضل عضو القيادة القطرية يومذاك. وبعد أيام من هذا الخلاف قتل شقيق جبار في ظروف غامضة فأتهم جبار كردي محمد فاضل بتدبير الحادث وهدد بقتله علنا أمام أبناء منطقة الفضل.

وخشية من تنفيذ جبار لتهديداته لفق له محمد فاضل بالاتفاق مع مدير الأمن العام ناظم كزار تهمة التعاون مع الحركة الكردية واستلام مبالغ كبيرة من زعيمها الملا مصطفى البارزاني.

وروى لنا جبار كردي في تلك الجلسة كيف أن والدته وهي امرأة قوية قابلت صدام حسين وعاتبته على اعتقاله وطلبت منه إطلاق سراحه لأنه "بريء من هذه التهمة". فاتصل صدام بناظم كزار بحضور والدة جبار وقال له : يا أبو حرب لماذا لا تطلق سراح هذا الرجل الذي قدم للحزب الكثير. فرد عليه كزار (والرواية لجبار نفسه) سيادة النائب التحقيق لم ينته مع جبار وما أن ينتهي سنطلق سراحه.

أحسسنا حينها أن هذه القصة حمالة أوجه فهي قد تعني أن صدام حسين كان على صلة بعملية اعتقال جبار بهدف التخلص منه وقد تعني أيضا أن ناظم كزار كان قويا إلى درجة يمكنه فيها أن لا يلبي طلب صدام .

كذلك روى لنا جبار قصة مماثلة عن مقابلة والدته للبكر حيث تكرر المشهد ذاته معها.

الرواية الثانية التي سمعتها خارج المعتقل تقول أنّ الهدف من عملية اعتقال "جبار كردي" كان حمايته شخصيا وضمان أمنه، بعد قيامه بقتل الشاب الشيوعي "وليد الخالدي" في أثناء احتفال نظمه الحزب الشيوعي في ساحة السباع القريبة من منطقة الفضل. إذ سحبه من السيارة بنفسه وأطلق الرصاص عليه أمام المحتفلين مثلما أطلق النار على متظاهرين آخرين

الرواية الأولى هي الأقرب للحقيقة لأنه لو كان الاعتقال هدفه حماية جبار وضمان أمنه لما كان يعذب ويضرب ضرباً مبرحاً في أثناء التحقيق معه وكنت شاهداً على ذلك. ثم أنه ظل معتقلا حتى وقعت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"حركة ناظم كزار" في 30 حزيران 1973 إذ اطلق سراحه على الفور. لكن هذا لا يعني أن صدام حسين كان بريئاً من مكيدة اعتقال جبار كردي فقد تمت تصفيته بعد اشهر قلائل من ذلك التاريخ في منطقة الكرادة على يد مسلحين من بقايا جهاز "حنين" نفسه أطلقوا النار عليه من رشاش ولاذوا بالفرار.

* * *

علمنا بوقوع ما اسمته السلطة بـ "مؤامرة" ناظم كزار مدير الأمن العام فجر الثلاثين من حزيران 1973 قبل أن تعلن عنها السلطة في اليوم التالي .

كانت الساعة في حدود الثالثة فجراً عندما صحونا جميعا على صرير الباب الحديدي وهو يفتح. دفع الحراس برجل عجوز إلى داخل المعتقل وأقفلوا الباب خلفه.

تفحصنا القادم الجديد بشيء من الحيرة والتساؤل: فمن يكون هذا الرجل الطاعن بالسن الذي جاءوا به معتقلا في مثل هذه الساعة؟

لم يكن الرجل وحده أو ساعة اعتقاله مصدر الحيرة والتساؤل إنما القصة التي رواها لنا. قال، بعد أن التف حوله المعتقلون وشعر بالأمان: "أنا من منطقة زرباطية. قبل ساعات من الآن توقفت عند منزلي في الصحراء سيارات كثيرة سوداء اللون فيها العديد من الرجال المسلحين بالرشاشات والمسدسات. سألوني عن الطريق المؤدية إلى الحدود الإيرانية فأشرت عليهم وذهبوا مسرعين، ثم بعد ساعة جاءت سيارات أخرى ونزل منها عساكر ومدنيون مسلحون تبعتهم طائرة هليوكوبتر هبطت قرب منزلي. وسألني هؤلاء أيضا عما إذا كنت رأيت أحدا مر من هنا. فقلت لهم نعم وذهبوا باتجاه إيران فلحقوا بهم. أما أنا فقد أركبوني الطائرة وجاءوا بي إلى هنا.. ما هو أسم هذا المكان؟ سألنا بدوره فقلنا له هذه هي مديرية الأمن العامة في بغداد.

كانت القصة التي رواها الرجل غريبة ومثيرة بالنسبة لنا ومما زادها غموضا أن أحدا من المعتقلين لم يستدع للتحقيق في ذلك النهار، كما كانت هناك طائرة تحوم فوق بناية المديرية طوال الليل.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مـا أن حـل الصـباح التـالي حتـى بـدأت الأخبـار تتسـرب لنـا عـن "مؤامرة" نـاظم كزار. أول المعلومـات وصلت إلـى جبـار كـردي عن طريق ضباط الأمن في الدائرة فكان أكثر الجميع فرحاً وغبطة بهذه الأنباء لأنها تعني رحيل عدوه اللدود كزار.

قصة "المؤامرة" كما رويت بعد ذلك تقول أن نـاظم كـزار كـان يعد العدة لتنفيذ خطـة لاغتيـال الـرئيس أحمد حسن البكر فـي المطـار أثنـاء عودته من زيارة كان يقوم بها إلى بلغاريا فقام كزار صـبيحة ذلك اليوم باستدراج كل من وزير الداخلية سعدون غيدان ووزير الدفاع حماد شهاب والعقيد عدنان شريف قائد الحرس الجمهوري وبعض المسؤولين والعسكريين فـي الدولـة وكانـت الذريعـة افتتـاح مبنـى جديد تـابع للأمـن العام،، ثم قام باحتجـازهم رهـائن بعد أن وثقهم وتخلص من حمايـاتهم ومرافقيهم، وفي اللحظات الأخيرة للتنفيذ أعلن عن تأخر وصول طـائرة البكر إلى بغداد لأسباب غير معلومـة فأربـك ذلك (كزار) ممـا أدى إلـى فشل العمليـة وانسـحاب المنفذين مـن المطـار، ثـم هـرب مـع مجموعتـه صـوب الحـدود الإيرانيـة ليتم محاصـرتهم فـي بنايـة قديمـة تقـع فـي تلـك المنطقة، ومعهم الرهائن، وفي النهاية تم اعتقال نـاظم كـزار ومـن معـه، بعد أن قتل حماد شهاب وأصيب سعدون غيدان إصابة بليغة.

بعد أيام قلائل أعدم كزار ورفيقه محمد فاضل عضـوا القيـادة القطريـة، إضافة إلى العشرات من ضباط الأمن، واطلق سراح جبار كردي فورا ولكـن ليقتـل بعـد اشـهر وسـط بغـداد. وكـان جبـار أبلغنـا قبـل ليلـة مـن "المؤامرة "وصية قال فيها حرفيا: كنت عبـــــداً لحزب البعث ونفذت مـا أمرنـي بـه وأنـا نـادم علـى كل مـا قمت بـه. أرجـو أن تخبـروا قيـادة الحزب الشيوعي بندمي هذا وأنا مستعد إذا أبقاني كزار علـى قيد الحيـاة أن اعترف بذلك أمام العراقيين جميعا.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

سيرة چلوب

مثل أي كلب ذليل كنت أعود إليه.

في كل مرة يدفعني فيها إلى هاوية التشرد، أطأطئ رأسي، مخذولا، وأجر قدمي نحو طرقات لا أعرفها من قبل.

أبحث عن شيء يسد رمقي فلا أجد سوى هباء الطعام، لقد سبقتني إلى الفتات حيوانات سائبة وهوام تدب على الأرض بلا هوادة.

يأخذني عطش مرير لساقية نائية فأعود فاراً من قطاع طرق وغرباء لا أراهم في ظلمة الدروب والمنعرجات.

في ليال كئيبة لم أجد ما يسلي روحي اللائبة ويبقيها يقظة فأسلمها لنعمة النوم في زرائب بعيدة.

يأكلني قراد الدواب فأنهش جسدي بأظافري، كأنني أنهش روحي، حتى أدمي لحمي.

لا يتركني ذباب الزرائب أهنأ بإغفاءة الفجر.

برودة لاذعة تغري على نومة أخيرة في صباح عابر آخر .

* * *

حنيني يجرحني فأعود إليه.

أترك ذيلي يتحرك مثل مروحة أضرب بها بين ساقيه.

أتشمم آثار أقدامه وهو يمضي بعيدا تاركاً لي بقايا غبار.

ما الذي فعلته كي يعاملني بكل هذه القسوة؟

هل أشفق عليه أم أشفق على نفسي؟ .

ذقت مرارة التشرد وترك في نفسي وروحي ما هو أشد من العلقم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشوارع، التي تبدو صديقة في النهار، تصبح في ليالي الشتاء عدوة مثل ذئب جائع.

الأصوات الناعمة، الآتية من الشرفات الأليفة، تشعرني بوحدتي وخوائي، فتجرح روحي.

بقايا أصدقاء مفترضين، أضعتهم.. أضاعوني.. لا أدري .

* * *

لا أحد يمكن أن يؤويك إن لم تكن من صلبه.

لا أحد يقدم لك الطعام ليطفئ نار جوعك.

بل لا أحد يتركك لشأنك حتى عندما تلجأ إلى القمامة.

كل حاوية لها زبائنها، أو متعهدوها، لا يمكن لأي كان أن يتطفل على قمامة ليست من حقه، أو من نصيبه.

كان الجوع في منزله أرحم من ولائم محفوفة بالخطر.

رغم قسوة الماضي يبدو أكثر رحمة من الحاضر.

كسرة الخبز المغموسة برائحة الزفر، كانت تطمن شهيتي وتعوضني عن أيام من الجوع.

رحمة الناس، وحدها، كانت تمنحني قوة على تجرع العطش .

قبل أن يأكل كان ينسل حاملاً، بيده الصغيرة، حفنة من الطعام ليطعمني قبل أن يطعم نفسه.

لم أكن قادراً على مجاراة حنوه وعطفه كنت أنظر إليه بعينين ذليلتين فحسب.

كان يمسح على رأسي كأنه يداري خجلي .

لم يعد كذلك.

الحياة نفسها لم تعد كذلك.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الماضي. الماضي.

لم يبدر مني ما يخشن قلبه علي.

كنت أقضي أقسى ليالي الشتاء وأنا أدور حول سياج البيت.

أنام بعينين نصف مغمضتين ويهتز جسدي حتى لحركة فراشة، فأفز مذعوراً.

حين أراه ساهماً يحدق في حطب السنديان وهو يحترق بهدوء، أعود على أطراف أصابعي مثل حمل خائف.

في لياليي الطوال والكئيبة كان يرمي على بيتي الصغير حجراً، من شرفته. أعرف أنه يريد أن يختبر يقظتي.

هل هذا ما كان يهمه، أن أكون يقظاً لحراسة منزله؟

لأنني أعرف أنه هو من يرمي الحجر على بيتي الصغير، لم أكن أعبأ، أو أعوي كما كان يريدني أن أفعل.

يشتاط غيظا ضانا أنني مجرد كلب كسول يقضي وقته في النوم.

كنت أمعن في إثارة غيظه فلا أتحرك من مكاني ولا اعوي عسى أن يدرك أنني لا أريد استغفاله، كما تفعل الكثير من الكلاب السائبة.

لم يكن العواء يغريني على لفت انتباهه لشجاعتي وسهري عليه، أو لإقناعه بيقظتي الدائمة.

فالعواء، الآتي من بعيد، ليس دائما، علامة يقظة أو شجاعة، بل ربما كان علامة خوف أو جوع.

لا أدري إن كان يدرك ذلك.

* * *

صامتا وكأن لا شيء يتحرك من حوله.

لا شيء البتة يلفت انتباهه سوى نار السنديان التي يحركها، بين الفينة والفينة، بهدوء الحكيم، كي يزيد أوارها.

يطقطق الخشب فينفث شراراً يتطاير لكنه لا يعبأ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أضرب بذيلي على وسادته فيمعن في لعبة النار.
لم تكن لدي حيلة ولا سبيل للفرار من جحيمه.
النار تأكل بعضها والليل قناع الأشباح.
وأنا خائف منه وعليه.
لو كانت له حقوق علي لأديتها له واسترحت.

* * *

تأكل من موائده حتى الجرذان وتشرب من دنانه أقوام لا نسل لها.
روائح الشواء المنبعثة من ولائمه الباذخة، تسلب لبي.
يأتي بأعداد لا نهاية لها من الهوام والزواحف والسحليات.
ثديات مرقطة بلون الرماد، وأخرى لا تزال الأشنات عالقة بذيولها.
قطط مزابل مخنثة تنبعث منها روائح الطمث والطين.
مخلوقات شوهاء تلتئم على موائده.
كنت أشم روائح الطعام فيسيل لعابي على ركبي.
لا أجرؤ على الاقتراب كي لا أعطي لضيوفه انطباعا بأنني دنيء نفس.

* * *

قططه البلهاء تموء بين قدميه فيأخذها لأحضانه. يمسح على قفاها ويبادلها همس من طرف واحد. قطط بلهاء تلتحف أغطية سريره وتعبث بثيابه الداخلية. أشعر بغيرة قاتلة، فأنا، وليست قططه البلهاء، من يحرس منزله.

* * *

أتوق لعطفه ومداعباته اللذيذة، التي كنت أحظى بها قبل مجيء تلك القطط الخناث.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ملاطفاته ومداعباته كانت تبعث الدفء في جسدي

وتشعرني بانتمائي الحميم إليه.

صرت أرى وبر قططه المدللة على بقايا الفتات التي يرمي بها إلي.

* * *

لن أنسى تلك العقوبة التي كانت جزءً لغلطة عابرة اقترفتها في لحظة جزع وضغينة.

تورم لحمي وأنا أتلقى ضربات العصا الغليظة على جسدي.

من أين له كل هذه القسوة.

كنت أهرب منه إليه.

أطوي جسدي على بعضه وأنظر إليه بانكسار وتوسل.

لم يشعره أنيني ولا عوائي اليائس وأنا أتلوى تحت قدميه، بأية شفقة.

ليس عوقي هذا ولا الألم المبرح بين ضلوعي، سوى آثار لتلك العصا الغليظة، التي تكسرت على أنحاء جسدي.

* * *

المرة الوحيدة التي شعرت فيها بشيء من شفقته القديمة كانت يوم غادر المنزل.

التفت نحوي، قبل أن يغلق الباب خلفه.

شعرت بغصة كادت تخنقني.

هو، أم أنا، من يغادر للمرة الأخيرة.

كنت أتوق لوداعه.

أكاد أختنق الآن.

جسدي مريض وروحي حزينة.

لم أعد أقوى على حراسة المنزل.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم يترك لي سوى الهزال والهوان.
عَوَقي يعوقني في البحث عن مكان آخر.
ليس لي سوى هذا الفضاء المقفر.

بغداد - ربيع 2007

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في تفاصيل التكون

ربما كان حلماً.. ربما كان قدراً، وربما كان شيئاً آخر، أكثر جمالاً ودواماً. لا أعرف، على وجه الدقة، كيف بدأت الأشياء بالتكوّن: الألوان والأصوات. الأحلام والأزهار والأقمار، كيف بدأت تظهر، تتوضح، تأتي، تتسرب، تتفتح، تصدح، تضيء، لا أعرف بالضبط، لكن هكذا كان فحسب:

ـ في الليل، الليل القاتم، تخبو الروح، تضمر، تكتئب. وفي لحظة ما، لحظة فحسب، تبدأ الظلمة بالانزياح، مثلما تنزاح عباءة سوداء عن جسد رمادي. ثم، شيئاً فشيئاً، يبدأ تفتت الظلمة، يميل السواد إلى الرمادي فيصبح الرمادي أكثر بياضاً. ثم، جدائل كالذهب، تبدأ بالتسلل، أولا نحو الأفق، فتصبح السماء أكثر نصاعة وألفة. ثم تهبط، جدائل الذهب، تهبط... تهبط.. تهبط، فتقترب، تقترب فتدخل الروح لمسات من الدفء الشفيف، دفء حنين ينساب بهدوء.. بهدوء.. بهدوء ..

الروح مليئة بالدفء!

أو ربما هكذا:

ـ في الصمت، الصمت الثقيل الداكن، تنزوي الروح في العتمة، تتوحد، تستوحش.. ثم، في لحظة ما، تتحرك العتمة من حول الروح، تهتز العتمة فتهتز الروح، يتلوّن الصمت فتتلون الروح، ثم، شيئاً فشيئاً، يأتي الصوت من بعيد، صوت مليء بالعذوبة، يقترب الصوت من الروح فتقترب الروح من الصوت، ثم، شيئاً فشيئاً، يلتقيان، الصوت القادم والروح المتوحدة، يلتقيان، يغنيان... يغنيان، فيمتلئ الصمت بالغناء. ثم، يضج المكان بالجمال.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الصمت والمكان مليئان بالجمال والغناء!

أو ربما هكذا:

ـ في العطش، العطش المرير، المديد، تذبل الروح، تشحب، ثم، شيئاً فشيئاً، تذوي الروح، تتضاءل، فينتابها الخواء، خواء شاسع بلا حدود، خواء صحراوي مخيف، خواء، خواء، خواء، خواء، ثم، في لحظة ما، ينساب البلل الرطب، شيئاً فشيئاً يتكون الندى، الندى يتكون قطرات ثم يتكاثر، يتكاثر، فينساب مثل جدول صغير إلى حيث نبتة الروح العطشى، فتهتز الروح، تهتز.. تهتز، تتحرك، تتحرك، ثم ترتوي، شيئاً فشيئاً، فتنهض..

الروح تنهض!

أو ربما هكذا:

ـ في الغربة، الغربة فحسب، تضيع الروح، تصدأ، تتآكل ثم تضمر، فيحل الماضي محل الحاضر ويبتعد المقبل المؤمل بعيداً.. بعيداً حتى لا يرى، تبدأ الذاكرة بنهش الوجدان وتبدأ الروح بالتغرّب عن الجسد. تنفصل الأشياء عن بعضها فتذوب الرؤى والقناعات وتشتد الأحزان. تبدأ الكآبة عملها الدؤوب في الروح شيئاً فشيئاً. الروح بعيدة عن الوطن والوطن بعيد عن الروح. الروح بعيدة والوطن بـ.. عـ..يد. ثم، في لحظة ما، تبدأ الروح بالتخلص من الضياع. شيئاً فشيئا ينزاح الصدأ ويكف التآكل وتبدأ الأشياء بالتلوّن والتكوّن من جديد.. تلتئم الروح بالجسد وتعود الأشياء إلى بعضها فتقترب الروح من الوطن ويقترب الوطن من الروح.

الروح قريبة من الوطن والوطن قريب من الروح!

أو ربما هكذا:

ـ في الصحو.. الصحو المرُّ، يتطاول الجدار فيتحول الخجل الحلو إلى حجر في الفم، يمتلئ الرأس بالهم والهواجس، ويمتلئ الجسد بالتعب والإرهاق. يتمدد الإرهاق في العقل وينساب التعب إلى المفاصل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والذاكرة معاً.. ثم، في لحظة ما، يسري الخدرُ، الخدرُ اللذيذ، شيئاً فشيئاً، فيتهدم الجدار ويتفتت حجر الخجل. تطردُ الروح الإرهاق والتعب معاً، وتعيد الاعتبار للوردة والأغنية معاً. تبدأ الوردة بالرقص وتبدأ الأغنية بالتفتح.

الروح ترقص وتضوع عطراً.

هكذا إذن:

ـ لقد حاولت مع نفسي، مع الذاكرة، مع الشعر، مع الماء، أن أعرف، على وجه الدقة، كيف بدأت الأشياء بالتكوّن، لكنني لم أمسّك سوى بخيط من العذوبة، لا نهاية له، ولا تفسير. لقد فوجئت بهذه العاصفة الكاسرة من الألوان والأغاني والأزهار والجداول والأقمار، وهي تطوّح بيّ مثلما تطوّح الريح بالسنابل الطويلة. لقد فوجئت بذلك النهار العظيم، الذي حلّ في ذلك الصباح، مثلما تحل الرحمة في القلب. فوجئت بالوردة الطالعة تواً من الماء. فوجئت بالمطر الهاطل من الأرض. فوجئت بالنشيد المتعالي من هوة الصمت. فوجئت بالكركرة الطفولية وبالنضوج المبكر.. فوجئت، فوجئت.. فوجئت. فأية أسماء يمكن أن أطلقها على هذه الزهرة العابقة بالحضور والعطر؟ على هذا الضوء الباهر الطالع من عتمة الروح، من غربتها، من عطشها، من صمتها، من صحوها، من سكرها؟ أية أسماء يمكن أن أطلقها على هذا الكريستال المبهج. على هذا المهرجان اللانهائي من الأطياف والمرايا والحدائق. على هذه القرنفلة المبجلة بالبياض والسحر؟

هكذا إذن..

لقد قلت لنفسي أشياء كثيرة، تحدثت للريح بكل الوقار، وشوشت النوارس وصارحت البنفسج وجادلت الحناء. لقد تجمعت حول روحي كل الحدائق، كل القصائد، كل المواسم، جاءت في ذلك الصباح الكريم، ذلك الصباح البازغ كبدء الخليقة، ذلك الصباح المحلى بالهيل والساهون والفضة، ذلك الصباح المبلل بالندى والنعاس والنبيذ، ذلك الصباح المؤطر بجدائل الذهب والنسرين.

هكذا قلت:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- إلى أين؟

فردت النوارس: إلى حيث الطلاقة والتصوف والمرجان.

- إلى أين؟

فرد البنفسج: إلى حيث السكر في نشوة العطر.

- إلى أين؟

فرد الحناء: إلى حيث تلتاع الشفاه من الشفاه.

ـ إلى أين يا روحي؟ وكنت خائفاً من الريح، فضجت الحدائق والقصائد بالنشيد:

ترجّل عن صهوة الخوف، فهذه لحظة الشجاعة الأخيرة.

أفسّح في الشوارع لخطوة المحبة، فهذا زمانك الوحيد.

أفتح للروح النوافذ، فهذه رياحك الأولى.

ترجّل.. ترجّل يناديك نخيلك الأزلي،

والرطب الحلو.

أخرج.. أخرج من عتمة التردد وليأت الطوفان.

هكذا، يا سيدي، ما كان بإمكاني أن أقول غير ما قلت.

لقد جرجرتني إلى حيث لا أدري ولا أعرف، ولكنني أثق: لقد أخذتني للسواقي فصدقتك لأنك الماء.

وأخذتني للأغنية فصدقتك: لأنك القصيدة.

وأخذتني للحدائق فصدقتك: لأنك الوردة.

وأخذتني للنار، فصدقتك،.. صدقتك: لأنك الجمرة.

هكذا، يا سيدي:

هذا أنا وهذا أنت، فأي دفاع عظيم ستحتاجه

غدا؟.. هل أنت جاهز للدفاع!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العشق «نورٌ»

طويلاً حدقت بهذه الورقة قبل أن أكتب عليها شيئاً.

كانت لا تزال بيضاء، باردة ومحايدة، وكنت ملتهب المشاعر وملتاعاً.

كنت كمن يريد أن يقول ما يخشى قوله، أو كمن يريد البوح بأسرار محرمة.

إنها كلمات فحسب، من دون شك، لكنها عصية القول لأنها منسوجة من ألوان وندى وضوء... كلمات تقال ربما في لحظة غفو، في هدأة صحو، أو في لحظة استفاقة ناعمة، لكنها لن تكتب على ورق لأن في ذلك ما يخدش حياء العبارة ويبدد صفاءها العظيم.

طويلا ترددت في الكتابة. فالكتابة تأريخ لشيء وما يحضرني يشبه الغناء أو البكاء.. أنه لا يؤرخ في أي حال.راودتني فكرة أن ارسم شيئاً على الورقة .مثل حلم لحظة الصحو، أو مثل وردة لحظة التفتح، أو شيء مما يرسمه العشاق الصغار: قلبان يخترقهما سهم!

لكنني عدلت عن الفكرة خشية أن أبدو طائشاً في هذا الزمن الرصين. قلت لنفسي: لأكتب شيئاً يشبه الشعر فالمقاربة بينك وبين الشعر هي المقاربة بين بنفسجة صغيرة وضوعها.

أو بين اللون والإحساس به.

أنا لا اكتب الشعر إنما أنا وسيط بين الشعر وبينك، أو بينك وبين الشعر، فأنتما معاً تثيران حزني وفرحي معاً أيضا.

الشعر يستدعيكِ فيَّ وأنتِ تستدعين فيَّ الشعر.

أنت الأول. أول البكاء وأول الغناء، أول الحزن وأول الفرح.

أنت أول الألوان وآخرها ومن دونك أنا قابل للكسر مثل مشبك

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشَعر.

تقلقني كثيرا تلك المسرة الأليفة التي يحدثها وجودك، إنها تشبه القشعريرة اللذيذة التي تحدثها القبلة تحت النهد أو خلف الإذن أو....

أنت تدرين كم يحرجني الكلام، الكلام عنك أو عن البحر فكلاكما يفيض علي، يغرقني في الزرقة والرذاذ.

أنا لا أقلِّب الكلام هنا إنما ابحث فيه عنك.. عن سمار اللغة، عن عذوبتها، عن حيائها وعن ألفة الحروف.. ولكن أي حياء وأية ألفة تلك التي يمكنني أن أجدها هنا في اللغة، أي بعيدا عنك!

إنها خارج اللغة، هناك خارج الكلمات والحروف.

إنها مارد تجسد على هيئة زهرة.

أو في صيغة ألم أو حنين، أو ما يرى على نحو لون فمن أين للغة مثل هذا؟

هل بوسعي أن ارسم الهواء؟ سألت نفسي ذلك!

يمكنني أن ارسم نجمة لكنها لن تضيء أبداً.هكذا هو الأمر الآن.

اشعر أحيانا وكأننا نحتاج لأن نتعلم لغة أخرى غير هذه التي نتداولها، لغة لها طعم مثلما للقبلة، لها عطر مثلما للنرجس، لها ضوء مثلما للنهار البسيط الأليف الذي ينهض قبلنا بقليل.

لغة لا تخذلنا حين تأتي الكتابة، أو حين يأتي الشعر.. أو حين...

إنما تنهض هي لتفتح كي نخرج معاً إلى الضوء.

هل تدرين من أين قادم أنا؟

أنا قادم من حطام....

الشعر وحده كان نديمي، ومبدد وحدتي وتعبي.

كنت امسك معول الشعر واهدم به صمتي.

كان سلاحي الوحيد في معركة غير متكافئة مع الأيام.

أيام ملآى بالصدأ والوحشة والرماد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نهاري الوحيد كان خليطاً من سديم وعتمة..
كنت ادفع بالأيام مثلما يدفع عتال مرهق عربة ثقيلة.
حطام كان ورائي وحطام كان على جانبي وحطام كان أمامي.
أكوام من السنوات خلفتها فوق بعض مثل خرق بالية.
وهأنذا الآن أرمم نهاري بشيء من شمسك، فازداد عطراً وضوعاً وضوءً.
ربما سأعود إلى حطامي يوماً، فقد جبلت على حزن مقيم لا فكاك منه..
إني اشتاق إليه أحيانا فهل تتصورين؟
أراوغه مثلما أراوغ الماضي، لكنهما معاً لا يكفان عن مشاغلتي.
لا دواء غير سكر طويل، غير ليل دائم، غير شمعة مستدامة.
أنا قابض عليك الآن مثل القابض على جمرة
لكنك جمرة في صقيع قاتل.. جمرة دونها العتمة..
فهل تقبلين حين ترتخي أصابعي عنك يوماً؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فهرست

مقدمة: سردية تشكيل المكان بصرياً 5

علبة الأحلام 9

جيران 15

الشاعر... من دون أسنان! 19

زنـوبــة 23

علي الگيار 27

قضية جبار لفته 31

موعد مع السيد الرئيس 41

اليوم السَحب 49

الرصاص 53

الأميركان يأكلون الفلافل أيضا 57

تحولات شارع مريدي 65

سيرة چلوب 75

في تفاصيل التكون 81

العشق «نورٌ» 85

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مصدر المؤلف

- 1
- 2
- 3
- 4

منشورات «ألف ياء AlfYaa»